تـفـاءَلْ

تفاءَلْ

ياسين فخر الدين

الطبعة الأولى 2020

الإيداع القانوني : 2366 ـ 2020

الترقيم الدولي (ISBN): 978- 9931- 369- 90- 5

دار سؤال للنشر والتوزيع

55 شارع بلعيد قويدر

ص.ب 357 السانيا – وهران

البريد الالكتروني: darsoual@hotmail.com

الهاتف: 799.85.73.73 (213+)

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه أو نقله أو استنساخه
بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من الناشر.

جميع الحقوق محفوظة

ياسين فخر الدين

تـفـاءَلْ

مجموعة قصصية

دار سؤال

تقديم:

بسم الله، والصلاة على خير الخلق، الذي بُعِث ليتمم مكارم الأخلاق، والذي أرسِل بشيرا ونذيرا، وعلى آله وصحبه، وعلى من تبعه في سنته، وصار على هديه إلى يوم يُبعث الناس سكارى، وما هم بسكارى، وبعد:

أيها القارئ، هذي المجموعة القصصية لك، ما ألفتها إلا لتقرأها، وتقف عند مضامينها، وتُعمِل ذهنك في شخصياتها وأحداثها ووقائعها. إن راقت طبعك خذ منها ما ينفعك على نوائب هذا الدهر، وخذ منها ما يجعلك من أهل القيم، واعلم أنك صاحب فكر. وإن لم تكن على مزاجك، ولم ترُق طبعك، ولم تكن على سجيتك، فاتركها لصاحبها.

اعلم صديقي القارئ أن كتابة هته المجموعة، وإخراجها إلى حيز الوجود لم يكن مشروعا في فكري، بل كانت كتابتها محاولة من العبد الضعيف في اختبار نفسه في مجال السرد، وقصة بعد أخرى، وبعدها بدأ يفكر في نشر هذي القصص. ولك أن تتصور الموقف، موقف صاحب هذه المجموعة، كان في البداية قائل شعر، ثم بعد فترة من الزمن تحول إلى كاتب قصة، وربما في المستقبل يُهدي للمكتبة العربية شيئا جديدا آخر، ربما يُهديها جنسا قشيبا يختبر فيه ذاته من جديد.

أعترف أني شاب في ريعان الشباب، هذا شيء قوى جذوة حماسي، وقوى عزيمتي، وزاد إصراري على المحاولة، وزاد من إرادتي على المواصلة، وقدوتي في مثابرتي:

كل صعب على الشباب يهون هكذا همة الرجال تكون

نعم، إنني من الشباب، وتمني لك أيها القارئ الفاضل أن تجد ذاتك أثناء القراءة، وتجد نفسك وقت المُدارسة، وبما أنني أرى أن القارئ لابد من أن يأخذ شيئا مما يقرأ، أتمنى

أن تنتفع بذا الجزء اليسير من أفكاري، ومن معارفي القليلة، ومداركي الضئيلة.

اقرأها، وليكن لي الشرف إذا ما أمتعتك، ونالت إعجابك، وجاءت على سجيتك، وتمليت بها، واستمتعت بها، واتخذتها صديقة لساعات محسوبة، أو أيام معدودات.

أيها القارئ، اعلم أن المؤلَف لأجلك، عند قراءته أصبح في مُلكك، وتحت تصرفك، اقرأه بعين بصيرة، وفكر متوقد لا يعرف للكسل طريقا، ولا للملل بريقا، كما لا يتخذ الكلل صديقا.

الناس أشكال وألوان، وخيرهم من تمتع في القراءة مثل الطائر الغريد بصوته، يغرد ويغرد، ولولا هذا التغريد، وذاك الاهتزاز، ما أضحى مسرورا يهزه الصوت، فيتراقص من فنن إلى فنن، ومن غصن إلى غصن، فافرح وتأمل، وأفرح نفسك كالطيور الوديعة:

تتغنى والصقر قد ملك الجـــ ـــو عليها والصائدون السبيلا
تتغنى وقد رأت بعضها يُـــؤ خـذ حيا والبعض يقضي قتيلا
تتغنى وعمرها بعض عـــام أفتبكي وقد تعيش طـويلا؟

أيها القارئ، إن ما يرفع الورى، ويزيد بهم درجات، من كان في القراءة حاضر البديهة، تسره القراءة لا سيما إذا كانت خطابا من وحي الخيال، لكنه خيال يلامس به المرء الواقع، ويصبو إلى تغييره من موقعه، ومن مكان تواجده، ويرى ضرورة في تغيير ما ليس من جنس الشريعة، وكان غبارا عليها، يرى الأمر مسؤولية دعا إليها زعيم كل المرسلين إذا هم – في الشفاعة- عند النشور توقفوا، فقد روى عنه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:"من رأى منكم منكرا فليغيره بيده،

فـإن لم يسـتطع فبلسـانه، فـإن لم يسـتطع فبقلبـه، وذلـك أضعـف الإيمـان"، والحديـث في صحيـح مسـلم.

عزيـزي، وخـلي وصاحبـي، لابـد أني قـد أطلـت عليـك الـكلام، وإني لأكـثر عليـك السـلام، وأهديـك هـذي القصـص، فاقرأهـا كـما تشـاء، وتمـلى بهـا كـما تشـتهي، واسـتمتع بهـا كـما تبتغـي، المهـم هـو أن تسـمَع، وبعدهـا تسـتمتع.

الأربعاء 6 صفر 1437هـ/18 نونبر 2015م

أريد من زمني ذا أن يبلغني

عاشت فتاة صغيرة في قرية صغيرة مترامية الأطراف، أشجار الزيتون عن يمين هذه القرية وعن شمالها. كانت هذه الفتاة تشق طريقها بنجاح نحو أفق رحب، فقد آمنت أن الشيء الوحيد الذي يُخَلصها من الإملاق والفقر هو العلم، فكم باتت الليالي الطوال العديدة بدون مأكل، لكن ذلك لم يكن يُضْعِفُ عزيمتها بل كان يقويها ويدفعها إلى الأمام.

كانت فيما كانت فتاة بيضاء البشرة تغطي شعرها مُتحجِبة، عيناها متلألئتان نورا، وتسطعان بريقا وضّاء. في كلامها همسٌ يدل على شيمة حسنة، وفي حديثها خجولة تجيب محاورها ناظرة إلى الأسفل، وبسمتها بسمة حياء توحي على تربية رشيدة تلقتها هته الفتاة.

ها هي تمشي في ساعة مبكرة من الصباح إلى المدرسة، وقد تناولت في فطورها كأسا من الشاي وشيئا من الخبز الذي كانت تغمسه في قليل من زيت الزيتون، وقليل من الزيتون والزبدة، فقد أنهت وجبتها المعتادة -التي لا تتغير إلا في بعض المناسبات- وحملت محفظتها الثقيلة، واتجهت صوب المؤسسة التي تدرس فيها، والتي توجد عل بُعْد كيلومترات عديدة من منزلهم. المهم أن هذه عادتها، فقد كانت تشعر بالتعب فيما مضى من المستويات بسبب طول المسافة بين المدرسة والمنزل، أما اليوم فقد طفح الفكر عقلها، وأصبحت ترى في هذه المعاناة نعمة، لا كما يراها الكثيرون نقمة، فلولا هذه المعاناة ما حصلت أعلى النقط، وما فازت بالجوائز الأولى في احتفالات المدرسة المختلفة في ما مضى.

الكل أصبح يقدر الفتاة لنبوغها، والكل صار يجلها لطموحها، والكل يُشجعها. بلغت شُهرتها آفاق بلدات بعيدة، وهي تدرك

يقينا أن لولا جِدها ومثابرتها ما وصلت إلى ما وصلت إليه من تقدير واحترام وحب.

هكذا في يوم من الأيام تصاحب بعض الفتيات، لكن لما تأكدت من سوء أفعالهن وأقوالهن، وقبح تصرفاتهن، وضعف عقولهن، وعدم حسن أخلاقهن فارقتهن، ووعدت نسفها بأحسن منهن خلقا، وألطف منهن تصرفا وكلاما، فهيأت لنفسها الأسباب حتى وجدت صديقة مجدة في الدراسة مثلها وصاحبتها، وكانت لها خير أنيس، وأحسن جليس.

أدركت الفتاة بفِطْنتها أن رفيقات السوء يجلبن المتاعب، وصديقات الخير يجلبن المكاسب، وعملت على ألا تبقى وحيدة شريطة أن يتحقق الهدف الأسمى من الصداقة.

بدأت تكبر الفتاة، لكنها ليست أي فتاة، هي فتاة عذبة الأفكار، كانت في دراستها الأولى، وكلما اعترضت سبيلها مشكلة إلا عرفت كيفية الخروج منها، ومعينها في ذلك هو فقر أسرتها الشديد الذي كان لها سندا يقوي فيها الطموح والإرادة بغية تغيير واقع أسرتها في المستقبل.

بينما الفتاة قادمة ذات بُكْرَةٍ إلى المدرسة اعترض طريقها إنسان سوء فتحايلتْ عليه قليلا قليلا، وبعدها حركت ساقيها للريح، وبدأت تجري وتجري إلى أن استقرت رجلاها في الأمان، واطمأنت على نفسها في باب المدرسة، ونجت من ذلك الشخص الذي أراد بها السوء، ولم يُدْرِكْ أنها أمهر منه ذكاءً، وأحسن منه عقلا، وأقوى منه حجة، وأشد منه برهانا، وأقوى منه حكمة، وإن استخف بِصِغَرِ سنها، ونحافة جسمها، وضعف بنيتها.

كان طموحها ليس له حدود، وعزيمتها لا تحدها قيود، وإرادتها إرادة المتنبي حين يقول:

أريد من زمني ذا أن يُبَلغني ما ليس يَبْلَغَه من نفسه الزمن

فهي تريد مع المتنبي أن يبلغها زمانها ما لم يبلغْهُ حتى الزمن نفسه، لكنها كانت تفوق المتنبي -الذي كان له قلب ملك وإن

كان لسانه من الشعراء- في أنها قانعة بالعطية، راضية بالقسمة، وكثيرا ما كانت تردد وتقول:"كل عطاء منه فضل، وكل عقوبة منه عدل"، تؤمن بأن عطاء الله جل جلاله للإنسان فضل، وكل عقوبة من الخالق للعبد هي دون ريب عدل.

سنة بعد أخرى والفتاة تثبت تفوقها في الدراسة والحياة إلى أن دخلت أسوار كلية الطب والصيدلة، واختارت الطب، لم تغير السنون من مطامحها شيئا، ولم تنل منها المشاكل والهموم، لازالت في تفوقها، تغيرت عليها المواد المُدرسَة قليلا، لكن بمرور أشهر معدودات أمسكت الخيط الرابط، واتصلت بالاجتهاد مرة ثانية حتى أصبحت من أوائل الطلبة ليس داخل الكلية فحسب، ولكن داخل الجامعة بأجمعها.

بعد كد وجد لسنوات طوال تخرجت الفتاة من الجامعة دكتورة متخصصة في طب العيون وجراحتها، ونظرا لنبوغها في العلوم الشرعية لم ترد فتح عيادة خاصة بها كي لا تأخذ قرضا من البنك تعيده زائدا بعض الشيء أقساطا، وبالتالي تقع في الربا المحرمة شرعا، لأن صاحب الربا يكسب المال دونما جهد، ودونما عمل، فقد اجتازت الدكتورة الطبيبة مباراة فتحتها وزارة الصحة ونجحت فيها، وعينت في مدينة من المدن الصغيرة الساحلية، وهناك سخرت كل ما في طاقتها لخدمة المرضى الذين في أغلبهم كانوا يذكرونها بحالها أيام الصبا، أيام الحاجة والعوز، أيام الفقر الذي أعانها كثيرا.

بعدما تأكدت أن المرضَى يؤدي بهم المرضُ العضوي إلى أمراض نفسية عديدة، شرعت في سد الثغرات في هذا الجانب، واقتنت مجموعة من الكتب المتخصصة في علم النفس وعلم الاجتماع، وخاصة القريبة من المجال الصحي، وسدت خصاصها في هذا المجال. كانت تطمئن مرضاها نفسيا أولا، وبعدها تحدثهم في سكينة وهناءة حتى انتشر اسمها في المدينة بكاملها، وعُرفتْ بطيبوبتها بين الصغار والكبار، بين الرجال والنساء، كما عرفت

بحنانهـا ورقـة فؤادهـا.

لـولا ريشـة الفتـاة -التـي هـي عقلهـا- مـا حققـت عـلى الإطـلاق مـا حققتـه مـن مكاسـب، ومـا بلغـت مـا بلغتـه مـن مجـد، ومـا جـاورت النجـوم في علوهـا، والسـماء في سـموها.

الإثنين 21جمادى الثانية 1435هـ/21أبريل 2014م

الإنسان بآدابه

- أُدخلي هنا بُنيتي، هل رأيت لباسا يُعْجِبك ابنتي؟ هذا سروال، ويبدو أنه جميل، وهذا قميص، وهذا حذاء كعب عال، ما أجمله من حذاء! ما أبهى لونه! ألم يعجبكِ شيء في المحل ابنتي؟
- لا يا أبي لِنذهَبْ إلى محل آخر.

بعد هذا الحوار الطريف، والاختبار الخفيف، يغادر الأب وابنته محل الملابس بحثا عن محل آخر، فهل سوف يجدان محلا يسد حاجة الفتاة للسرابيل؟

- إنه محل آخر يا ابنتي لِنَدْخُلْ إليه. أُنظري، إن هذا المحل أجمل من الأول، فيه الثياب الرائعة، لعلها تُعجبك، انظري هنا، وفتحي البصر هناك، وغيري الطرف إلى تلك الزاوية، يبدو أنك أُصِبْتِ بالذهول، هذا طبيعي في مثل هذه المحلات.
- لم يُصِبْني أبتاه أي ذهول، لكني لم أجد ما يُعجبني لحد الساعة.
- إذن فَلنَذهب إلى مكان آخر.
- أجل يا أبي.

ذهب الأب وابنته إلى أكبر محل في السوق، محل ترتاح فيه النفوس، ثياب فاخرة، وبالطبع لا ترتديها إلا السافرة، أحذية وسراويل وأقمصة قادمة من أكبر شركات إنتاج الملابس في العالم. محل من بابه يسلب الألباب، ويحير العقول، ويعجب الصغار كما يعجب الكهول.

- بنيتي، افرحي، هذا أكبر محل، ومن الأكيد أنك سوف تجدين ما تَوَدينه، ولباسا أنيقا ترتدينه.
- كل الألوان، وكل الأشكال لا تعجبني، يبدو أنك لا تعرف ابنتك ماذا تريد؟
- ماذا تقولين ابنتي؟
- ما تسمع أذنُكَ.
- لا يا ابنتي، لطالما كنت مقربا منك كثيرا، ومن الأكيد أني

أعرفـك جيـدا جيـدا.
- أبي، ألم أرَبّ على يديك؟
- بلى يا ابنتي.
- أنـت الأب الصالـح، وأنـا الابنـة البـارة، أنـت الناصح، وأنـا المنصوحة، هـل نسـيت أني لا أحـب هـذي الثياب؟
- لم أنسَ هذا مطلقا؟
- ومـا لـك منـذ أن صحبتُـك إلى السـوق، وولجنـا المحـلات تقـول لي هـذا جميـل، وهـذا أجمـل، هـذا رائـع، وهـذا أروع، هـذا حسـن، وهـذا الأحسـن.
- إنني أحاول المساعدة فقط.
- سألتك لأني أعرف أنك تعرف ما أحبه.
- نعـم أعـرف مـا تحبينـه، واللبـاس الـذي تُفضلينـه، تحبـين الملابـس غـير الواصفـة غـير الشـفافة، وبصراحـة تحبـين مـا هـو فضفـاض مـن الألبسـة غـير شـفاف.
- بـمَ أنـك تعـرف هـذا، لمـاذا كنـت تحـاول تقديـم المسـاعدة لي في الاختيـار.
- يا بُنيتي، هذا سر الأبوة.
- أي سر هذا أبي.
- لا تترددي تعرفينه بحول المولى فيما بعد.
- قـلْ لي، ألم أتعلـم منـك كل هـذا؟ ألَسْـتَ الأب الحنـون المقـرب منـي؟ ألَسْـتَ الأب الـذي فتـح بصـيرتي؟
- بلى بنيتي، كل ما قلته صحيح.
- لكن ما هو السر الذي تخفيه عني؟
- في الأخـير بعدمـا تشـترين مـا يعجبـكِ سـوف أخـبرك، والآن أخبرينـي مـاذا تودين؟
- أود لباسـا يعجبنـي في البدايـة، ويسـترني، ويحفـظ كرامتـي، ويُبْعِدني عن كل سـفور.
- هذا سهل، اِتبعيني.

بعدما تيقن الأب أن تربيته لم تذهب سُدى، وأن قطعة كبده في صحة عقلية جيدة، وأن أفكارها متناسقة أراد – أثناء بحثهما عن محل آخر- أن يواصل الموضوع الذي بدآه.

- اسمعي.

- نعم، أنا صاغية لك معلمي، أردت أن أقول يا مُفهمي.

- يقول كبير من الكبراء اسمه أبو عثمان النيسابوري:" من لم يزن أقواله وأفعاله كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا تعده في ديوان الرجال"، عليك بنيتي بالحجاب، فالناس أشكال وأحسنهم من بادر إلى تطبيق ما جاء في الكتاب، المرء صغيرتي إذا لم يعمل بما شرعه الخالق يبقى عمله مردودا.

- إنه لقول رائع، لهو كبد الصواب.

- نعم يا ابنتي قال المولى جل جلاله:" يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين"، عليك بتقوى الخالق في السر والعلن، وفي القول والعمل. اِسمعي قول مصطفى صادق الرافعي:

واجعل أساس النفس حب الله إذ لا خير في بيت بغير أساس

- كلام روعة، دائما تختار لي أجمل ما قيل، وتقنعي بالحجة، وتعطيني الدليل، وترشدني بالكلام الجميل، وتوجهني بكل قول أصيل، شكرا لك.

وصلَ الاثنان إلى المحل المقصود، إلى محل محترم، وحارت الفتاة ماذا تختار. ارتاحت لهذا المحل وأراحت أباها، بسمت وأفرحت والدها.

- انظرْ إلى هذا الفستان.

- إنه لأروع فستان شاهدته اليوم، فضفاض غير شفاف، ولونه جميل، وربما يناسب هذا السروال، وذاك الحذاء.

- ذوقك هذا يؤكد لي أنك صاحب الذوق الرفيع. أزلت حيرتي باختيارك ما يناسب الفستان.

- لم أكن أعلم أن الذكية تحار في اختيار ما يناسبها. هذا اللباس يناسبك ويناسب فكرك الرائع.
- إن من زرع حبوب هذا الفكر هو أبي، المرشد الذي أحتاجه فيطعمني بالأقوال الجميلة، يعلم كيف يحيي روحي، وصدق من قال:

فروح الروح أرواح المعاني وليس بأن طعمتَ وأن شربتا

أتعلم ما الذي يسرني أكثر في هذا اللباس، ويزيدني حبورا، ويفرحني سرورا.
- إذا ما تفضلت ابنتي بالإبانة سوف أعرف ما الذي يفرحها في هذا اللباس.
- إني فرحة، لأن هذا اللباس سوف يريح دواخلي، وسيطمئن خاطري، إنه يرضي ربي، ويرضي والدي، ويرضي والدتي، أليس هذا الفرح بعينه؟ هل هناك سعادة أجمل من أن تسعد وتسعد الآخرين؟
- بلى صغيرتي، أنا راض عنك.
- قديما أبي قالوا:"الإنسان بآدابه لا بزيه وثيابه". الأخلاق كل شيء في حياة المرء، لكن ابنتك الفطنة تقول:"الإنسان بآدابه وزيه وثيابه".
- أصَبْتِ أيتها الفطنة، منْ علمك هذا؟
- علمتني أنت إياه، وأمي من سقتني حتى أصبحت كما تسمع وترى.
- زادك الرازق حرصا. هيا الآن نؤدي الواجب لصاحب المحل، ولنذهب كي نروي لأمك كلما جرى معنا في بحثنا عن اللباس الكنز.
- هيا، وبعدها أخبرني عن السر الذي قلت أنك ستطلعني به عند فراغنا من بحثنا.
- بالتأكيد سأخبركِ أيتها الذكية التي لا تنسَ.

أدى الوالد ثمن الملابس لصاحب المحل وغادرا عائدين إلى

المنـزل، وفي الطريـق ذكـرت الابنـة أباهـا بالـسر الخفـي.
- يا أبي أخبرني عن السر.
- أنا لم أنسَ ابنتي.
- إذن أخبرني، فقد شوقتني لمعرفته كثيرا كثيرا.
- اسـمعي، كل أب يعـرف أبنـاءه جيـدا، وأنـا طالمـا عرفـت صغـيرتي، وعرفـت مـا تحـب مـن الألبسـة، ولكننـي طرقـت في السـوق أفكارها، والـسر هـو أني أردت اختبارهـا، وقـد نجَحَـت في الاختبـار، وتركـت أباهـا مـسرور الفـؤاد. مرحـى لي بـك، ومرحـى لوالدتـك بـك، ومرحـى لابنتـي المطيعـة بنفسـها.
الأحد 22 جمادى الثانية 1436هـ / 12 أبريل 2015م

العقل غريزة والحكمة فطنة

لا يـزال الطفـل نجيـب يشـق طريقـه إلى المعرفـة في ثبـات وأريحيـة، هـذب نفسـه تهذيبـا لـو كان لـدى سـائر الأطفـال الذيـن في مثـل جيلـه لـكان لدينـا جيـل يتمتـع بأخـلاق سـيد البشريـة صـلى اللـه عليـه وسـلم الـذي جـاء ليُتَمـم مـكارم الأخـلاق.

دخـل هـذا الـذكي اللبيـب الكُتـاب وهـو يبلـغ سـت سـنوات مـن عمـره، حفـظ إلى حـدود سـن الثامنـة ثلـث القـرآن الكريـم، ولمـا وصـل هـذا السـن بـدأ يـتردد تفكـيره وتفكـير أهلـه في آفـاق مسـتقبله، هـل يُتْمـم تعليمـه العتيـق القائـم إلى جانـب تحفيـظ الكتـاب عـلى التمكـن مـن علـوم الشريعـة الإسـلامية أم ينقطـع عـن هـذا التعليـم وينضـم إلى التعليـم المـدني القائـم عـلى الحداثـة والانفتـاح عـلى العـالم؟

بعدمـا بـدأ يفكـر نجيـب في مسـتقبله العلمـي شـاور أبـاه الـذي حـار في مصـير ابنـه شـهورا عديـدة يأخـذ بمشـورة أقربائـه وأصحابـه وأهـل التجربـة إلى أن اسـتخار المـولى جـل وعـلا في فـترة المصيـف عـلى حـال يتمثـل في أن ولـده مـن الحكمـة أن يُغـادر الكتـاب ويدخـل المدرسـة التـي لهـا كبـير فضـل هـي الأخـرى في تثقيـف الأنـام، وبعدمـا يُحصـل المـرء شـهادات علميـةً مسـموح لـه أن يُشـارك في الوظائـف الحكوميـة التـي تسـمح بهـا الشـهادة الُمحصلـة، وهـذا الأمـر هـو الـذي حفـز أبـا نجيـب أن يُدخـل ابنـه إلى المدرسـة بـدل الكتـاب.

بعـد عطلـة الصيـف دخـل الطفـل الصغـير المدرسـة رغـم أنـه كان يفـوق أقرانـه، لكـن رغـم هـذا فـإن نجيبـا ذكي لبيـب لا ينظـر إلى سـنه، بـل يهتـم بعلمـه، وزاده في المعرفـة، والـشيء الأجمـل هـو أن أقرانـه سـيبتدئون في معارفهـم الأولى، وهـو الـشيء الـذي حسـم معـه الصغـير الـذكي سـنوات مضـت، وسـوف تعطـي السـنوات التـي قضاهـا في الكتـاب متفوقـا أكلهـا دون شـك. وفي الوقـت نفسـه يتابـعُ

حفـظ القـرآن عـلى يـديْ شـيخه في العطـل وأوقـات الفـراغ، لأنـه ضروري نافـع لـه في حياتـه ومماتـه.

بـدأ الصغـير دراسـته وهـو متحفـز لرؤيـة كيفيـة عمـل المـدارس، وقـد أظهـر لمُدرسـيه ذكاءً حـادا ليـس عاديـا بالمـرة. وقـد ازداد اللبيب فطنـة بمـرور الأشـهر حتـى صـار مَضْربـا للمثـل في الجـد والمُثابـرة.

رغـم أنـه يـدرس بعـض الـدروس لأول مـرة إلا أن ذهنـه كان يسـتجيب وهـذه الـدروس نظـرا لأنـه حصـن نفسـه في الكتـاب جيـدا جيـدا. كان ولا يـزال هـو الأول بـين زملائـه في العلـم. ونظـرا لأنـه كان يحفـظ مـن حِكـم القـرآن والحديـث والشـعر الـشيء الكثـير الوفـير، تداخلـت هـذه الأشـياء في تهذيـب أخلاقـه، كيـف لا والكتـاب يعمـل عـلى تهذيـب الفضائـل قبـل كل شيء؟ مـا أجمـل التعليـم العتيـق في صُنْعـه لسـجايا الطـلاب!

إن هـذا الأمـر كان يُسـعد أبـا نجيـب، فهـو لمـا يـرى دومـا أخـلاق ولـده يقـول في خاطره:"ذكـر فـإن الذكـرى تنفـع المؤمنـين"، ويُذكـر ابنـه ببيـت أحمـد شـوقي الشـهير قائـلا:

وإنمـا الأمـم الأخـلاق مـا بقيَـتْ فـإن هُـمُ ذهبتْ أخلاقهـم ذهبوا

ويـرد الابـن عـلى أبيـه أحيانـا قائلا:"الإنسـان بآدابـه لا بزيـه وثيابـه". وهـذه الأخـلاق كانـت تُدخـل عـلى الأب البهجـة والـسرور، يفـرح بهـا أيمـا فـرح، لأنـه يعلـم أن بهـا قـام بواجبـه تجـاه ابنـه. وقـد يسـتدل الوالـد لنجيـب أيضـا قائـلا: "الأخـلاق الصالحـة ثمـرة العقـول الراجحـة"، ويـشرح لابنـه أن مفـاد هـذه القولـة أن الأخـلاق الحميـدة هـي ثمـار لعقـول تتعامـل بالعقـل والفكـر بـدل غيرهـما، والأوائـل قالوا:"العقـل غريـزة، والحكمـة فطنـة". وإلى جانـب أن نجيبـا وُلـد بعقـل مثـل جميـع النـاس، فهـو يتمتـع بالحكمـة التـي توحـي بالـذكاء والألمعيـة.

سـنة وأخـرى ونجيـب يُظهـر التفـوق. والأسرة معجبـة بهـذا الولـد الهبـة مـن الخالـق سـبحانه، وقـد قـال شـاعرنا:

وجـودة العقـل تنْبِـي أن خالقـهُ سـبحانهُ مُبـدعٌ في خلْقـهِ عِـبَرُ

إن عقـل هـذا الولـد يمتـاز بالجـودة، ومـا زاد مـن جودتـه هـو احترامـه الكبـير لأسـاتذته في المدرسـة، ولأبيـه وأمـه في البيـت، ولجميع أصدقائـه الذيـن أحبـوه حبـا كبـيرا، ولـكل مـن يعرفـه، وربمـا السـبب في هتـه الرزانـة والتعقـل يعـود للُكتـاب أولا، لأن علـوم الشريعـة تطهـر القلـوب، وتُنَظـف الأفئـدة، وراجـع لـلأب ثانيـا، فـالأب وجـه ابنـه توجيهـا رشـيدا سـواء في دراسـته أو في أخلاقـه، وكان يـرى أن هـذه الثنائيـة بـين العلـم والأخـلاق إن لم تجتمـع في طالـب العلـم كان علمـهُ إخفاقـا، ويُضْمـر دائمـا في فـؤاده قـول حافـظ إبراهيـم:

والعلـم إن لم تكتنفـهُ شـمائلٌ تُعليـه كان مطيـة الإخفـاق
لا تحسـبن العلـم ينفـع وحـده مـا لـم يُتـوجْ ربـه بِخَـلاَقِ

لا يـزال نجيـب وهـو في سـنته الثانويـة التأهيليـة الأخـيرة عنوانـا بـارزا للتفـوق في أبهـى صـوره، وأجمـل حُلَلِـه، وأرقـى درجاتـه، ومـا يزيـد هـذه الدرجـات العاليـةَ جـمالا هـي تلكـم السـجايا الرائعـة التـي تزيـد أبنـاء العُرُوبـة ولـدانَ الإسـلام سـناءً وعُـلا. وإنـه لـشيء فائـق الجـمال أن يتعامـل كثـير مـن الإنـس تعامـل نجيـب مع نفسـه.

الأحد 30 ربيع الثاني 1435هـ/ 2 مارس 2014م

القناعة كنز لا يفنى

غيـوم تغطـي القريـة بأكملهـا، لابـد أن تمطـر السـماء في هـذا اليـوم دون شـك، لقـد خيـم عليهـا حـزن كئيـب، وظـل غريـب، وقـد سـكن كل أهلهـا منازلهـم دون خـروج، وزادهـم المطـر بعـد دقائـق معـدودات فرحـا، لمـاذا لا يفرحـون وفصـل الشـتاء يأتيهـم بـكل خير؟

قـد بـدأ الـسرور يظهـر عـلى وجـوه الكبـار رجـالا ونسـاءً مـن أهـل القريـة، أمـا الصغـار فقـد بـدؤوا يتسـابقون نحـو بـرك المـاء يلعبـون وسـطها وقهقهاتُهـم تعلـو في براءتهـا، إنهـم الأطفـال، يفرحـون بالشـتاء كـما يفرحـون بغـيره، كلـما غـير الجـو حالـه مـن حـال إلى حـال إلا وغـير الصغـار لعبهـم حتـى يناسـب حالـة الجـو.

إنهـا الطفولـة في براءتهـا، والفرحـة في منبعهـا، صغـار لا تلهيهـم منغسـات الحيـاة عـن اللعـب ولا عـن الفـرح، ولا تبعدهـم آفـات الدهـر عـن أحـلى مـا يحبونـه، وأقـصى مـا يحبونـه هـو النسـيان، لأنهـم أثنـاء اللعـب ينسـون كل شيء متعلـق بأسرهـم أو متعلـق بحياتهـم، كـما ينسـون أيضـا أنهـم تعبـوا طـول النهـار يلعبـون، ولا يأتـون إلى منازلهـم نهـارا إلا لقضـاء حوائـج أسرهـم، هـذا يرعـى غنـما، وهـذا يخـرج حصانـا، وهـذا ينظـف إسـطبلا، وذاك يقصـد سـوقا، وهكـذا.

في هـذا اليـوم الممطـر الجميـل يتفـاءل عجـوز فقيـه مـن القريـة بـأن هـذه السـنة سـيكون المحصـول الزراعـي أحسـن مـن السـنة السـابقة، ويقـرر فـورا حـرث قطعـة أرضـه الصغـيرة، وبذلـك يـزرع تفاؤلـه في كل الرجـال الذيـن كانـوا حولـه، ومـما زاد تفاؤلـه هـو اسـتمرار المطـر عـلى تلكـم الحالـة لمـدة أسـبوع حتـى ظـن أهـل القريـة أن المطـر لـن يتوقـف، لأنهـم لم يعتـادوا عـلى هـذا المطـر طيلـة حياتهـم.

بعـد أيـام قلائـل عـلى الحـرث يـزرع العجـوز قطعـة مـن أرضـه

قمحا، وأخرى لم يقرر بعد ماذا سيزرعها. بعد تفكير وروية يقرر أن يزرعها عدسا، وهكذا بدل محصول واحد كما أَلِفَ فيما مضى سوف يحصل محصولين، ينال من القمح ما يحتاج إليه طيلة السنة الموالية ويبيع ما تبقى له منه إلى جانب العدس.

إنه تفكير من كَبُرَ سِنهُ وخبرَ الأيام، لكن يبقى هذا مجرد حلم قد يتحقق وقد لا يتحقق، لقد عَقَلَهَا وتوكل على الله ومن الأكيد أنه لن يخيب أبدا، لأن من يتوكل على الله فهو حسبه.

يعتني العجوز صاحب الجسد القوي والعضلات التي تراخت مع السنين بأرضه أيما عناية، لقد أخذ ما يكفي من التجربة كي يخبر الأيام، قد شارك فيما مضى في المسيرة الخضراء، وكان متفائلا بأن المغرب سيُعيد ما ضاع من أقاليمه الصحراوية، وكان للمغرب ما تمنى، وكان للعجوز ما تفاءل به، فاسترجع المغرب أقاليمه الصحراوية وخرجت إسبانيا من صحراء المغرب، وحقق العجوز والمغاربة نصرا عظيما وفتحا جليلا من دون إراقة دم.

إن العجوز الآن ازداد حنكة وتجربة وتبصرة، إنه لَيُبْصِرُ الأمر قبل أن يقع نظرا لحكمته، فكل من في القرية يحترمه ويأخذ برأيه في الأمور، وكأن العجوز هو الذي قيل في حقه:

يزن الأمور كأنما هو صَيْرَفٌ يزن النضارَ بدقةٍ وحِسَابِ

إن هذا الوجود يحتاج إلى أصحاب الرأي السديد الذين يعد العجوز منهم، فكم قضية أزعجت صاحبها ونغست عليه الحياة أياما قام العجوز الفقيه بحلها، وكم من مصيبة كانت حطاما على صاحبها قام العجوز بإيجاد المنفذ لها.

إنه العجوز، أيَفوته -إذن- أن يعتني بأرضه وهو المُبْصِرُ بالأمور والحازم وقت الشدائد والحكيم ذو الرأي قبل شجاعة الشجعان؟

لقد خرجت بعد أيام البذورُ أوراقا صغيرة من تحت الأرض فزادته فرحا إلى فرح، وسرورا إلى سرور، ومع الأيام بدأت تتكون الحبوب، وشهرا بعد آخر لم يتبق إلا عملية الحصاد التي قام بها

العجـوز عـلى عجلـة ومضـض.

بعـد الحصـاد لم يكـن المحصـول كـما تنبـأ بـه العجـوز وتفـاءل، لكنـه رغـم ذلـك راضٍ بالقسـمة والنصيـب، شـاكر لمـولاه عـلى مـا أعطى رغـم أنـه كان يـود أن يبيـع جـل محصولـه وأن يبنـي بيتـا في أرضـه التـي لا يسـكن إلا في كـوخ فيهـا، ورغـم ذلـك قانـع قناعـة لا حـد لهـا، وكأنـه هـو الـذي ينطبـق عليـه قـول الشـاعر:

لَبَيْتٌ تُخْفَقُ الأرياحُ فِيهِ أحب إلي مِنْ قَصْرٍ مَنيفِ

هكـذا يكـون الرجـال، أصحـاب البصائـر، وأولي النهـى، وذوي العقـول النـيرة، والحكـم الخـيرة. أليـس قانعـا قناعـة الزاهـد والقناعـة كنـز لا يفنـى؟

كثـيرا مـا تأمـل وقـال في أعـماق نفسـه: "القناعـة روح التقـوى"، أيُمكـن ألا يقنـع بالنصيـب وهـو الـذي يتأمـل دائمـا في هـذا القـول الجميـل؟ أيُمكـن أن يكـون عديـم الرضـا؟ إنـه الـذي تأمـل كثـيرا في هـذا القول:"الرضـا أفضـل مـن الزهـد في الدنيـا"؟

إن الرضـا أفضـل شيء في الحيـاة، وأحسـن شيء في الوجـود، ودونمـا شـك سـوف يعلـم العجـوز قيمـه الحسـنة إلى كل مـن يحبـون القيـم النبيلـة، والمعـاني السـامية الرفيعـة، والحيـاة السـهلة البسـيطة الجميلـة.

الأربعاء 30 شوال 1435ه/ 27 غشت 2014م

المال والبنون

تـزوج حامـد -الـذي يبلـغ مـن العمـر ثلاثـين عامـا- مـن سـعيدة التـي تبلـغ مـن السـن عشريـن سـنة، أقـام الزوجـان وليمـة لهـذه المناسـبة حضرهـا الأهـل والأحبـة والأحبـاب والأصحـاب، وبعـد الوليمـة بيـوم واحـد رحلـت سـعيدة مـع زوجهـا إلى بيتهـما الجديـد، وكل واحـد منهـما يمنـي النفـس في أن يكونـا زوجـا صالحـا.

بعـد عـام مـن الـزواج -الـذي كان راحـة بـال لـكل واحـد مـن الزوجـين- أنجبـت سـعيدة مولـودا سـماه بعاصـم، فـرح حامـد لأنـه أصبـح أبـا، وأقـام عقيقـة حضرهـا الصحـب الذيـن شـاركوا حامـدا وسـعيدة الفـرح والـسرور.

أضفـى عاصـم عـلى البيـت حلـة أخـرى، إنـه الأول لهـما، دون شـك إنـه البكـر، إنـه قـرة العـين، إنـه العطيـة مـن الخالـق الوهـاب الرزاق ذي القـوة المتـين، سـعيدة أصبحـت أكـثر مـن سـعيدة، وحامـد حامـد للمـولى شـاكر لربـه، راض بالنصيـب، راض بالقسـمة، يدخـل البيـت بعـد يـوم مـن العمـل الشـاق وتكفيـه نظـرة مـن ابنـه -الـذي بـدأ يكـبر شـيئا فشـيئا- تنسـيه المتاعـب، بـل تنسـيه الدنيـا ومـا فيهـا.

بمـرور ثـلاث سـنوات قـدر الخالـق أن يكـون لعاصـم أنيـس في البيـت الـذي عـرف فرحـة أخـرى بـولادة فـرح، لقـد أدخلـت الفـرح كلـه عـلى البيـت، أقـام حامـد عقيقـة تشَـارك فيهـا الفرحـة مـع أحبابـه وأهـل سـعيدة. وبهـذا أضافـت فـرحُ بسـمة أخـرى عـلى البيـت.

بعـد عامـين عـلى ولادة فـرح رُزِقَـت الأسرة بمولـود جديـد اختـير لـه اسـم منصـف تيمنـا بـأن يكـون منصفـا عـادلا في حياتـه. وهكـذا يـزداد الـسرور، ويـزداد التوجيـه:

- توقفـي يـا فـرح، قـد أضحكـت منصفـا كثـيرا، وهنيهـة يـا عاصـم لقـد أبكيـت أخـاك مـن كـثرة الضحـك.

لابـد أن منصفـا وجـد الحـب والحنـان مـن طـرف أخويـه، لابـد

أنهما أحباه حبا شديدا، أليس الأصغر؟ أليس المدلل؟

أدرك الأبوان أن الحياة بهذا الثلاثي الرائع ستصعب، لكنهما يثقان بالمدبر الحكيم الذي يرزق من يشاء بغير حساب، ألم يقل المولى جل وعلا في تنزيله ولا تقتلوا أولاكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خِطْئا كبيرا؟، ألا يعرف المتفقه في العلم حامد أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا؟ أما سعيدة فهي ابنة عالم لذا فهي قنوعة راضية باسمة واثقة متفائلة بالمستقبل.

دخل عاصم سنته الأولى الابتدائية، وأبدى تفوقا على أقرانه، من الأكيد أنه سيكون له شأن عظيم، الكل أصبح يجله من زملائه ويقدره، هكذا هو العلم يدخل عليك الوقار كما يضمن لك الاحترام.

بعدما وصل عاصم سنته الرابعة الابتدائية دخلت فرح سنتها الأولى وأبدت هي الأخرى تفوقا وجدا كبيرين، هكذا هم أبناء أهل الإيمان، لا يعرفون إلا العلا، ولا يفقهون إلا المجد، لكن لابد من الصبر، باب العلم مفتوح لأصحاب الصبر مع الأمد الطويل.

انتظرَ منصف أن يصل السن القانونية للتمدرس بلهَف، ولما دخل المدرسة صار يأخذ العلم بنَهَم، لقد حبب إليه كل من عاصم وفرحَ العرفان، وهو الآخر له قريحة لا تود إلا التفوق، وبمساعدة أبويه المتفقهين أصبح ينبوع المعرفة لما بدأ مرحلة الثانوي التأهيلي.

بعد نجاح عاصم في البكالوريا اختار مواصلة المشوار في شعبة الهندسة، وبعد سنوات قلائل حصلت فرحُ على البكالوريا واختارت الطب الذي كان حلم طفولتها، لقد طرحت قول المتنبي وراءها وحققت حلمها، والمتنبي يقول:

ما كل ما يتمنى المرء يُدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وفرح لا تؤمن بهذا، فرح لا تؤمن إلا بالجد، وتحقيق المجد،

وأخوهـا منصـف ذهـب مذهبهـا وسـلك مسـلك أخيـه البِكْـر حتـى أصبـح الـوَرِع المثقـف، لقـد أحـب أن يكـون مثقفـا، ولمـا حصـل عـلى البكالوريـا دخـل كليـة الآداب، واختـار شـعبة الدراسـات العربيـة وأبـلى فيهـا البـلاء الحسـن.

تخـرج عاصـم مهندسـا وتخرجـت فـرحُ طبيبـة متخصصـة في طـب العيـون وجراحتهـا، ومحـب الثقافـة منصـف أصبـح مدرسـا للغـة العربيـة، أفـاد التلاميـذ حتـى أجـاد، وعـوض الثلاثـة الصالحـون كل جهـد بذلـه الأب والأم في سـبيل تربيتهـم تربيـة صالحـة تعـود بالنفـع عليهـم وعـلى الأمـة سـواء.

بعـد وصـول السـفينة إلى بـر الأمـان لابـد أن يفـرح حامـد وأن تفـرح سـعيدة بالإنجـاز، كيـف لا يفرحـان وقـد ربيـا أبناءهـما عـلى القيـم النبيلـة، وعـلى الأفعـال الجميلـة حتـى وصلـوا المـراد، وحققـوا مـا يصبـو إليـه كل فـرد عاقـل ذي رؤيـة وبـصر نافـذ أخـاذ.

الأربعاء 20 ذو الحجة 1435هـ/ 15 أكتوبر 2014م

إن الشعر وجدان

أراد يافع قول الشعر، لكنه يحاول ويحاول دون جدوى، المهم أنه كان يحس أن شيئا ما يملأ أحشاءه، وهذا الشيء طبعا هو الشعر، لكم صبر وصبر إلى أن قرر في يوم من الدهر أن يسأل أهل الاختصاص، وعارفي الشعر.

قصد التلميذ أستاذ العربية الذي طالما تحدث لتلاميذه عن الشعر وأهله، فكم تكلم عن أبي تمام والبحتري وأبي العلاء المعري والمتنبي، وكم تحدث أيضا عن حياة وشعر محمود سامي البارودي وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم ومعروف الرصافي ومحمد الحلوي ومحمد بن إبراهيم، وعن أصدقاء الرومانسية كأبي القاسم الشابي وجبران خليل جبران وإيليا أبي ماضي وميخائيل نعيمة، وعن رواد شعر التفعيلة أمثال محمود درويش وسميح القاسم وصلاح عبد الصبور وغيرهم.

عرف التلميذ من يسأل، سأل أستاذه عن غايته قائلا:أستاذي، أريد أن أقول شعرا لكني عاجز عن ذلك، فماذا أفعل؟ رد الأستاذ في لطف:بني، سأقول لك ما قاله خلف الأحمر للكبير أبي نواس لما سأله السؤال نفسه، قال له اذهب واحفظ ألف بيت من الشعر، ولما فعل أبو نواس المطلوب عاد عند الأحمر وطمأنه أنه حفظ الأبيات الألف، فقال خلف لمريده اذهب وانسها. رد التلميذ في لين:أستاذي، ما كانت غاية الأحمر من ذلك كي يطلب من أبي نواس حفظ الشعر ونسيانه؟ قال الأستاذ والبسمة على محياه:إن غاية الأحمر من ذلك أن تلميذه لما سيحفظ الشعر وينساه ستبقى الألفاظ في ذهنه، وبذاك يفوز بمعجم ذهني من كلمات، وإضافة إلى ذلك سيكتسب ثقافة موسوعية، وأنه أيضا سيتعرف أن الجامع المشترك في القصيدة الواحدة بين أبياتها الوزن، وأشياء كثيرة أخرى.

يسأل التلميذ أستاذه من جديد:هل هذا كل شيء؟ يرد الأستاذ

مـن جديـد: لا، عليـك أيضـا القـراءة في الكتـب، والاطـلاع فيهـا عـلى حيـاة العـرب وأيامهـم، كـما عليـك القـراءة في الجرائـد والصحـف والمجـلات والدوريـات، والاطـلاع عـلى كل جديـد في المعمـور، وعليـك بأحسـن شيء في هـذا كلـه ألا وهـو الصـبر، الصـبر ثـم الصـبر، لأن المتنبـي قـال:

بقـدر الكـد تكتسـب المعـالي ومـن طلـب العـلا سـهر الليـالي
ومـن طلـب العـلا في غـير كـد أضـاع العمـر في طلـب المحـال

وقد قال في موضع آخر:

عـلى قـدر أهـل العـزم تـأتي العزائم وتأتي على قـدر الكـرام المكارم

إذن يـا بنـي، اصـبر في طلـب هتـه الأشـياء، وأنـا متأكـد أنـك سـوف تحقـق المـراد، وخصوصـا إذا سـخرت شـعرك لخدمـة الأمـة الإسـلامية.

كلـما قلتـه أسـتاذي منطقـي للغايـة، شـكرا عـلى هـذا المدخـل، دون شـك سـأحفظ وأجـد وأثابـر في تحصيـل ذلـك إرضـاء لنفـسي، وخدمـة لأمتـي التـي أحبهـا حبـا لا يوصـف، أليـس المـرء يولـد مـن أجـل وطنـه؟

ذهـب التلميـذ فرحـا، لقـد أشـفى شـيئا مـن سـقمه الدائـم، عـرف القليـل مـما يمكـن أن يُعـرَف في هـذا البـاب، ودون شـك أن المسـتقبل ومصاحبـة الكتـب سـوف تعلمـه الكثـير الكثـير.

بـدأ يقـرأ ويقـرأ، لقـد أصبـح الكتـاب صديقـه الـوفي، ومحبـوب نفسـه البهـي، وفي كل مـرة يتغنـى بهـذا الشـعر:

يـا كتـابـي يـا كتـابـي أنـت لي خـير الصحـاب
فـيك لي خيـر أنيـس بالأحاديـث العـذاب
لسـت تحبونـيَ إلا قـول حـق وصـواب
يـا رفيقـي حيـث مـا كنـ ـت وفي كـل الرحـاب
فيـك لي بسـتان زهـر يانـع غـض الشـباب
نـزهـة للـنفـس فـيه وارتيـاح للمصـاب
أتملـى منـه دومـا باللـذيـذ المستطـاب

حفـظ مـن القـرآن والحديـث، وأدمـن قـراءة الشـعر وحفظـه،

الموضوعـات تذهـب عقلـه، لقـد قـرأ حتـى أحـب الحيـاة، وقـد حفـظ حتـى تنمـى ذوقـه، وأضحـى تهـز الكلـمات وجدانـه، وتحـرك الألفـاظ فـؤاده، وتوقـظ المعـاني إحساسـه حتـى يـردد:

ألا يـا طـائـر الفــردو س إن الشعــر وجــدان

رأى نفسـه كثـير اللحـن في اللغـة، وقـرر أن يـزور معهـدا لتدريـس العلـم في حيهـم، قصـد المعهـد تحقيقـا لغايتـه. قابـل أحـد مسـؤولي المعهـد، رحـب المسـؤول بطلبـه، وصـادف ذلـك أن هـذا المسـؤول هـو مـدرس اللغـة - مـن نحـو وصرف وبلاغـة وعـروض- بالمعهـد المقصـود. قـال المسـؤول للتلميـذ: يـا بنـي إن العـرب تكلمـت، ولم تخطـئ عـن طريـق السـجية، أما نحـن علينـا أن نـدرس اللغـة تجنبـا للحـن، ألم تسـمع قـول القائـل:

النحـو يصلـح مـن لسـان الألكـن والمـرء تكرمـه إذا لم يلحـنِ

وإذا طـلبت مـن العـلوم أجلها فأجلها نـفعا مقـيم الألـسن

إذا أردت يـا بنـي تعلـم الإنشـاء أيـا كان نوعـه، شـعرا أم نـثرا، في حقـل مـن الحقـول المعرفيـة، فأنـت محتـاج إلى هـذي الأشـياء التـي جمعهـا القائـل في بيتـين:

نحـو وصرف، عـروض ثـم قافية وبعـــدها لـغــة قــرض وإنـشــاء

خــط بيــان معــانٍ مــعْ محــاضرة والاشــتــقاق لها الآداب أسماء

عليــك بهتــه الأشـياء، وفي بضـع سـنوات سـيكون لـك فضـل كبـير، واحـدة واحـدة، النهـر قطـرة قطـرة يصبـح كـما تعـرف، والسـد ينبـوع مـن هنـا، وآخـر مـن هنـاك، وهكـذا يتجمـع شـبيها بالبحـر، الصـبرَ الصـبرَ بنـي.

تأكـد للتلميـذ مـا قالـه لـه أسـتاذ اللغـة العربيـة فيـما سـبق. أصبـح يـتردد عـلى المعهـد، وبـدأ ذهنـه يتفتـح في فهـم علـوم الآلـة في العربيـة، بعدمـا كان يقرأهـا لوحـده في كتـب اللغـة فـلا يفهـم إلا القليـل، الآن اسـتوعب القـول: مـن كان شـيخه كتابـه، غلـب خطـأه صوابـه، وذلـك ليـس دحضـا لقيمـة الكتـاب، ولكـن قائـلي هـذا القـول أرادوا التأكيـد عـلى قيمـة الشـيخ والأسـتاذ والمعلـم.

في المعهد تعرف التلميذ شيئا جديدا عليه، رأى أن المعهد من آن لآن ينظم نشاطات فكرية ثقافية، يدعو إليها مفكرين من مختلف المشارب والحقول الفكرية، يحاضرون محاضرات تحت شعار فكري ما. راح ملتزما على حضور كل الأنشطة المنظمة من طرف المعهد العلمي، أكسبته هذه المحاضرات كثير إفادات، وكثير معارف ومكتسبات، قد وعى وتعلم أشياء عديدة.

لا تظن أن التلميذ توقف عند هذا الحد، لم يتوقف تفكيره عن طرْق باب كل ما من شأنه أن يقوي تجربته، ويغني مداركه، كان كلما سنحت له الفرصة يسافر للتجربة والتدبر في الكون، تعرف عادات وتقاليد كثيرة، والتقى الصالح والطالح، وكان يقول في هذا كلمات الشاعر:

إذا صاحبت قوما أهل ود فكن لهمُ كذي الرحم الشفيق
ولا تأخذ بزلة كل قوم فتبقى في الزمان بلا رفيق

زار الأماكن وساح بلاده، سافر ووجد عوضا عما وعمن فارقه، ولأول مرة يقول بيتا على وزن المتقارب، فيبدع قائلا:

تأمل تجد في الوجود سرورا يزيد الفؤاد ضياء ونورا

في بادئ الأمر لم ينتبه إلى ما قاله، فجأة بدأ يسترجع ما قاله بعد حين، وكأنه أحس أنه نظم شعرا، لما تحسس البيت من جديد ذهنيا طار من شدة الفرحة، وكم كانت فرحته مضاعفة لما تأكد أن بيته الشعري بيت جميل رائع يدعو إلى التأمل في الكون كي يرى المرء آيات الله في الآفاق.

واصل برنامجه ومشروعه الفكري، اطلاع في الكتب وبحث متواصل، اكتسب من خلال محاوراته لمن درسه، ومحاوراته للأسفار مبادئ وفيرة تسهل عليه الاستفادة أكثر وأكثر مما يقرأ، واصل الدرب حتى قال بيتين من الشعر آخرين على مجزوء الوافر:

هو الفرقان يا عرب لنا به بهجة عجب
به كل امرءٍ يرتا ح لا تدنو له الريب

حـول هـذا القـول مـن بيتـين بعـدُ إلى قصيـدة رائعـة تحـت عنوان "الفرقـان"، كيـف لا يقـول قصيـدة في أعظـم كتـاب في الوجـود؟ كيـف لا يقـول قصيـدة في القـرآن وقـد صاحـب القرآن؟

أخـيرا ارتـاح قليـلا، بـدأ يقـول الشـعر فارتـاح، بـدأ المـشروع الـذي أراده فكـرة، ولأن الفكـرة أول المـشروع بدأهـا حتـى حقـق الغايـة، لكنـه لم ينقطـع عـن أصحابـه، واصـل الاعتنـاء بأصحابـه، كان يحبهـم كثـيرا، أصحابـه لم يكونـوا ينهرونـه، إنـه متأكـد أنهـم لـن يفعلـوا مـا يؤلمـه في يـوم مـا، لأنهـم مـن ورق، فهـو الموقـن أن الكتـاب أفضـل صديـق، والمتنبـي علمـه أن:

أحب مكان في الـدنى سرج سابح وخـير جليـس فـي الزمان كـتـاب

أصبـح التلميـذ في سـنوات مـن التحصيـل شـاعرا معروفـا، تعرفـه المـرأة، ويعرفـه الرجـل، معروفـا عنـد الصغـير والكبـير، تمكـن مـن أن يدخـل بشـعره رفـوف المكتبـات، أصبـح يسـتدل بشـعره الرائـع كل امـرئ رأى المناسـبة مواتيـة للاسـتدلال بالشـعر.

هكـذا حقـق التلميـذ مجـده، وعـاد عنـد أسـتاذه الأول الـذي أعطـاه المنهـج، والـذي أعطـاه اللوحـة والريشـة والأصبـاغ، لكـن اللوحـة – لأنهـا فائقـة الروعـة والجـمال – رسـمت واسـتغرقت سـنوات وسـنوات، وبإتمـام اللوحـة مـا فـرغ الصبـي أو أنهى مشـواره، اسـتمر في رسـم اللوحـات - بلغـة سـليمة رائعـة- لوحـة بعـد لوحـة بعـد أخـرى.

الجمعة 1 جمادى الأولى 1436هـ/20 فبراير 2015م

إن المعلم للعلياء يحملنا

عـاش نـزار في مدينـة فيحـاء، في مدينـة عُرفـت بشسـاعتها بـين خليلاتهـا مـن المـدن، كـم صـال في المدينـة -في صبـاه- وجـال، وكـم كان فيهـا سـعيدا، كـبُر فيهـا فرحـا غريـدا، وسـبب فرحـه الطفولـة التـي تهـدي الفـرح لـكل صغـير ابـن أنثـى، كـم كان سـليم الفكـر أنيـق العقـل، يفكـر تفكـير الكبـار رغـم أنـه مـن الصغـار، يـضرب أخماسـا في أسـداس. إذا مـا رأيتـه رأيـت طفـلا، وإذا مـا كلمتـه كلمـت كهـلا، علمتـه الأيـام الكثـير، علمتـه الحـزم والجـد، علمتـه السـرور والفـرح وتـرك الرزايـا، لقـد تعلـم الكثـير والكثـير حتـى صـار أبـو تمـام قدوتـه في قولـه:

لقـد جربـت هـذا الدهـر حتـى أفادتنـي التجـارب والعنـاء

فعـلا قـد توالـت عـلى نـزار الأيـام حتـى أفادتـه بالـشيء الكثـير، ونِعْـمَ المـرء الـذي تعلـم مـن الأيـام، وطـوبى لمـن خـبر الأعـوام، ومرحـى لمـن وضـع الأسـاس والأركان، وبعدهـا بـدأ البنيـان، وشـيد صرحـا عاليـا جعلـه إنسـانا.

كان نـزار فيـما كان كثـير الشـغب، يحـب اللعـب مثـل أقرانـه، وإلى جانـب اللعـب كان يحـب العلـم وأهلـه، كان مـن المتوسـطين داخـل الفصـل، وكان مـن الجهابـذة إذا تعلـق الأمـر بالفكـر، كان كل مـن يقابلـه يـدرك أنـه ولـد نجيـب، وفتـى لبيـب.

ذات يوم قابل نزار صديقا له فقال الصديق لنزار:

- أنـا أمقـت العلـم، لا فائـدة منـه، لا يفيـد الإنسـان في الحيـاة، لا يصنـع العلـم للمـرء شـيئا في الوجـود.

- فقـال نـزار:لا تقـل هـذا يـا صديقـي، هـذا يوحـي أنـك إنسـان دون فكـر.

- لا أنا إنسان فكر.

تذكر نزار شيئا مما يحفظه في هذا الموضوع فقال:

- يـا صديقـي العلـم يحيـي البرايـا، ويُهـذب السـجايا، ويجلـب

الاحـترام والتحايـا، ألم تسـمع قـول اللـه جـل وعـلا هـل يسـتوي الذيـن يعلمـون والذيـن لا يعلمـون؟ ألم تسـمع قـول القائـل:

والعلـم يحيـي أناسـا في قبورهـم والجهـل يلحـق أحيـاء بأمـوات؟

يا صديقي، قد قال أمير الشعراء:

النـاس صنفـان: مـوتى في حياتهـم وآخـرون ببطـن الأرض أحيـاء

يـا صديقـي، مـن أحيـا هـؤلاء النـاس؟ لقـد أحياهـم العلـم، والجُهـال أماتهـم الجهـل في حياتهـم. يـا أيهـا الصديـق قـد قـال الناظـم:

العلـم يحيـي قلـوب الميتـين كـما تحيـا البـلاد إذا مـا مسـها المطـرُ

والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه كـما يُجـلي سـوادَ الليلـة القمـرُ

لقـد انبهـر الصديـق للكلـمات التـي خرجـت مـن فيـه نـزار، وقـف صامتـا، وقـف مبهـورا مسـمرا في مكانـه حائـرا، لا يعـرف مـاذا يقـول، أصبـح لبـه يجـول.

- أكل هذا الخير يجلبه العلم؟

- كل هذا وأكثر، أنا لم أقل لك إلا القليل.

- العلـم جميـل، كيـف أتعلـم يـا أخـي وأنـا صغـير وذهنـي لا يقبـل العلم؟

- العلم -صديقي- في الصغر كالنقش على الحجر، قال الشاعر:

تعلـم يـا فتـى والعـود رطـب وجسـمك لـيـن والطبـع قـابـلْ

فحسـبك يـا فتـى شرفـا وعـزا سـكوت الحاضريـن وأنـت قائـلْ

عليـك أخـذ العلـم مـن أهلـه، وأهلـه الشـيوخ والعلـماء، حـاول وسـترى كـم سـوف ينـيرك وينـير دربـك.

- غـيرت فكـري كليـا، كنـت أمقـت العلـم، واليـوم أصبحـت أحبـه، مـن اليـوم أود أن أطـرق بـاب الشـيوخ والعلـماء كي أطلـب العلـم.

- أحسنت، العلم سيجعلك امرأ آخر.

واصـل نـزار المشـوار، كان مـن المتوسـطين في الفصـل ومـازال كذلـك، لازال حـاضر البديهـة مُتوقـد الـذكاء، كأنـه هـو الـذي قيـل في حقـه بيـت إيليـا أبي مـاضي:

وصفوك بالتقوى وقالوا جهبذ علامة ولقد وجدتك مثلما ..

مكن الذكاء المفرط نزارا من أن يُصبح مدرسا. بعدما حصل على الإجازة الأساسية في الحقوق تقدم لمباراة مراكز مهن التربية والتكوين ثم نجح. دخل مركز مهن التربية والتكوين بمكناس،و بعد سنة تكوينية تخرج مدرسا للابتدائي، وعُين في إحدى القرى النائية، لا ماء فيها -إلا السواقي- ولا كهرباء، لا مواصلات، لا ظروف تُحفز على العيش، تدمر أول أمره وسخط على الجميع، سخط على الدنيا وما فيها، سخط على الوظيفة وعلى الظروف المُزرية التي لم يكن يتخيلها مُزرية بهذا الحجم.

أدرك هذا الأريب خلل التعليم في منفاه، وعى الشاب الذكي خطورة الموقف، ولِمَ لمْ تتقدم البلاد إلى الأمام، علِم لِمَ البلاد في تخلف، مرض ومرض لكنه توقد للخروج من الأزمة، وفي يوم من الأيام صاح:

يا من يُحن إلى غد في يومه قد بِعْتَ ما تدري بما لا تعلمُ

بعدما تعرف نزار على تلاميذه أدرك أنه يحمل رسالة، وعليه أداؤها في أتم وجه، وفي أبهى صورة، صاحبهم وعاشروه، صار لهم خير مدرس، وأصبحوا له خير أنيس، يجدهم في القسم، ويلقاهم في السوق، يجدهم في الحقول، ويجدهم في السواقي، ويجدهم أثناء النزهة، ويلقاهم وقت العمل وأثناء الفراغ.

وجد الصديق الفراغ الكبير، وضيع منه الكثير، خمن وخمن حتى أدرك خطأه الفادح، أدرك أن المولى أنعم عليه بنعمة عليه استغلالها، نعمة الفراغ الكبير الذي عليه أن يبدأ استغلاله، لكن فيم يستغله؟ عليه استغلاله في القراءة، وفي المُطالعة، لكن فيمَ يقرأ ويطالع؟ عليه أن يقرأ ويُطالع في كل شيء حتى يُصبح موسوعي الفكر، وهو الحازم الفطِن.

عاشر نزار القراءة، أصبح يقرأ بلهف وجنون، كان يقرأ الكتاب بسرعة، ويُسجل ما بدا له مهما في دفتر مخصص لتسجيل المهم مما قرأه، كان يقرأ الكتاب تلو الآخر، والمجلة

تلـو المجلـة، والجريـدة تلـو الصحيفـة، يُتابـع الأخبـار حتـى يلتقـط سـمعه كل مـا يجـري في المعمـور. أمـضى سـنوات هكـذا عـلى حالـه، وفي يـوم مـن الأيـام طـرأت عليـه فكـرة أن يبـدأ بحفـظ النصـوص أيـا كانـت، قرآنـا وحديثـا وقصيـدا ومَثـلا سـائرا وغيرهـا، وذلـك غايـة أن يكتسـب محفوظـا مهـما، وأن يكتسـب معجـما يُمكنـه مـن التبحـر في العلـم. وأمكنـه مـا تمنـى، لأن كل مـا يتمنـاه المـرء يُدركـه.

في يـوم مـن الأيـام أتى تلميـذ عنـد نـزار فـدار بينهـما مـا دار في هـذا الحـوار الطريـف:

- أستاذي، لِمَ أنت أستاذ مميز؟

- أنا لا أرى نفسي مميزا على الإطلاق.

- لا، أسـتاذي أنـت موسـوعي الفكـر كلـما أتى موضـوع إلا أفدتنـا، مـا السـبب وراء هـذا النبـوغ؟

- لا تسـمي معرفتـي المتواضعـة نبوغـا، إن كل مـا أعـرف بسـيط للغايـة، وكل مـا أفيدكـم بـه أتـاني نتيجـة قـراءاتي الكثـيرة في شـتى العلـوم والمجـالات، وإذا أردت أن تصـل وتترقـى عليـك بكـثرة القـراءة، سـتمر عليـك أعـوام عـلى هـذا الحـال، فاصـبر نفسـك في هـذا الوضع، وداومْ عليـه، وسـوف تفـوز فـوزا عظيـما.

- الآن علمـتُ سـبب تفوُقـك، علمـتُ أنـك بالقـراءة فُـزت، ولم تفـز هكـذا، لأن حاصـد الـزرع سـبق أن وضـع الحَـب، وأن صاحـب المَجْـد لـه كَعْـب، وأرى الذهـاب عـلى نهجـك لنيـل العُـلا.

- يُشرفنـي أن يكـون طمـوح تلامـذتي كبـيرا، أنـا أرجـو مثـل كل مُـدرس أن يكـون تلاميـذي فوقـي في المعرفـة بكثـير، أريـدُ أن أطمـئن عليهـم، أريدهـم أن يقطعـوا الـوادي دون بلـل، وأود أن يرتقـوا عمـلا دون كلـل، وأن يتمسـكوا -في حياتهـم- بالأمـل.

بعـد هـذا الحـوار ذهـب المُـدرس لقضـاء بعـض أشـيائه واتجـه نحـو المنـزل، إنـه لا يُضيـع الدقائـق، يـراوح يومـه بـين حفـظ وقـراءة، ومُشـاهدة برامـج مهمـة مكنتـه هـي الأخـرى مـن نيـل كثـير مـن الأشـياء.

شاهد نزار على التلفاز برنامجا حول التربية والتعليم، ويتعلق الأمر بضعف التعليم، هذا الضعف الذي يعترف به الجميع، ولاحظ أن كل واحد من المدعوين لهذه الحلقة من البرنامج يدلي بدلوه، منهم من يرى أن ضعف القطاع متعلق بضعف الأطر التربوية، ومنهم من يرى أنه متعلق بالعولمة التي ضررها أكبر من نفعها، والتي أمرضت العالم، والتي جعلت القيم تجد صداما حادا يجعلها لا تلقى أرضية لتوظيفها وتطبيقها على مستوى الواقع.

كان المدرس يرى أن إصلاح هذا الضعف متعلق بالأساس في إرادة سياسية من طرف الجميع، آباءً وأطرا ودولة، ويرى أن الأمر أيضا يتعلق بالمال لا بالتصاميم والمُخططات التي أرقت البلاد، يتعلق بمضاعفة الجهود، وذلك عن طريق الزيادة في عدد مؤسسات التعليم، والزيادة في حجم الأطر والرفع من تعويضاتها وسد الخصاص المُهول، وإقامة شراكات ما بين الوزارة الوصية وباقي الوزارات الأخرى، وأهم شيء الإرادة والعزيمة العزيمة، لأن الأمر يخص قطاعا حساسا إذا صلُح صلحت باقي القطاعات.

بعد البرنامج الذي لم يُقنع حضوره الأستاذ حول القضايا التي أثيرت، نام نومة هنيئة، فهو محب للنوم، أصبح يحبه ويهواه في البادية، أعطته البادية السكينة والهناء، وجعلته في راحة وكبرياء.

حاور المدرس مدرسا آخر معه في المؤسسة نفسها، لكن هذي المرة حول مشاكل المدرسين، وجرى بينهما ما يلي من حوار:

- صاحبي نزار، المدرس يعاني الويلات والويلات.

- ماذا تقصد خليلي؟

- عند تعيين أو انتقال يجد الإنسان نفسه أمام واقع دون مواصلات، ومحروما من أبسط التجهيزات. المؤسسات من دون ماء، ومن دون كهرباء، وأغلبها بجدران تقادم عليها العهد، وربما

يعـود أغلبهـا إلى عهـد عـاد أو ثمـود.
- معك حق، الواقع هكذا، وعلى المرء أن يُكابد ويصبر.
- كيف يصبر؟ ألم تسمع بقول القائل:

قـم للمـعـلـم أعـطـه مـنـديلا يـبـكي المعلم بكـرة وأصيـلا
ما عـادت الدنيـا تقـر بفضله وتـبـدلـت أحـواله تـبـديـلا
لم يرفعـوه كما يليـق بشأنه لـم يحفظـوه وأهـمـلـوه ذليلا
وأخـو الجهالـة أكرمـوه لمـاله ويـرَوْن قبحـا إن أتـاه جميـلا
مـا عـاد أهـل العلـم سـادة قومهـم بـل سـادنا مـن أتقنـوا التجهيـلا
أنى تكـون لنـا الصـدارة أمتـي والجهـل يكتـم صرخـة وعويـلا؟

- كم أضحكتني صاحبي، أراك متشائما.
- لا، أنا غير متشائم، لكن الواقع يشير إلى هذا.
- أنـا لا أقـول لـك أني لا أريـد أن يكـون الوضـع أحسـن مـما هـو عليـه، ولكـن عـلى الإنسـان أن يتسـلح بالصـبر الصـبر، فالواقـع كـما أكـدتَ هكـذا، وعـلى المُـدرس أن يرجـو الأحسـن، وفي الوقـت نفسـه ألا يتدمـر، وأن يبحـث عـن الحلـول كي يتعايـش مـع الوضـع.
- هل يتعايش مع الذل؟
- ليـس هنـاك أي ذل، وإنمـا هنـاك واقـع مريـر علينـا أن نتعايـش معـه كي لا نمـرض.
- المهـم عنـدي هـو أن الأسـتاذ يـدرس خمسـين تلميـذا، وفي بعـض الأحيـان أكـثر، فـما هـي القيـم التـي سيُدرسـها والبيداغوجيـا التـي سـيُطبقها؟ قـال الشـاعر:

شوقي يقول وما درى بمصيبتي قـم للمـعـلم وفـه التـبـجـيـلا
اقعـد فـديتك هل يكون مبجـلا مـن كـان للنـشء الصغير خليلا
ويـكـاد يفـلـقـني الأمير بـقـوله كـاد الـمـعـلـم أن يكـون رسولا

- لا تستشـهد إلا بالـكلام الـذي يحطـم النفـوس، القيـم التـي يوصلهـا المـدرس إلى عشريـن تلميـذا يُوصلهـا إلى الأربعـين، ولا تفهـم مـن كلامـي أني أنـا أيضـا لا أفضـل أن يكـون قسـمي يتوفـر عـلى عشريـن

تلميـذا.

- لم تقنعنـي، كلـما في التعليـم مريـض للغايـة، المـدرس يعمـل دون كرامـة ودون شرف.

- المدرس أصل كل شرف وعلياء، قال القائل:

إن الــمـعـلـم للـعـلـيـاء يـحـمـلـــنـا وفـي يـديــه غــراس العــلـم والأدب
هو الشجاع وفي روض الهدى علم نـور يـضيء بـلا زيـــت ولا لــهــب
فالله أعــطـــاه نــــورا مــن هدايته مشكـاته مـن سـنـا الأقــلام والكـتــب
يعـطـي الكـثـيـر ولا يـرجو له ثمنا فـهـو المـحـب وغـيـث دونما سحبِ

عليـك بالتفـاؤل وتـرك التشـاؤم لأهلـه، لأنـك أهـل للتفـاؤل ولسـت أهــلا للتدمـر مــن الواقــع، إنــك لــن تزيــد الطــين إلا بلــة بهــذه الشـكوى، اصـبر نفسـك مـع الذيـن يدعـون ربهـم بالغـداة والعـشي يريـدون وجهـه، إذا لم تصـبر عشـت عيشـة أليمـة، واكتسـبت نفسـية حزينـة، وإلى حـوار آخـر صديقـي لعـلي أجـدك غـيرت شـيئا مـن هــذه النفسـية المنكـسرة الحاقـدة المحطمـة.

2 شعبان1436ه/19 يوليوز2015م

إنها أحلام بها عبر

كان فيـما كان، في ذلـك الحـي الفقـير -الخـرب بأهلـه الخـرب بناسـه حـي أغلـب سـكانه مـن الفقـراء لا مـن الأثريـاء- طفـل صغـير، لـه مـن الأحـلام مـا لا تبلـغ مبلغـه إلا الجبـال الراسـيات، والـرواسي الشـامخات، أحلامـه كثـيرة، وأهدافـه عظيمـة، يـود منـذ أن أدرك كنهـه في هـذا الوجـود أن يحقـق كل أحلامـه.

كان في دراسـته متواضـع المسـتوى، لا هـو مـن المتفوقـين، ولا هـو مـن المتعثريـن، لا هـو مـن المشـاغبين، ولا هـو مـن اللطفـاء، طفـل عـادٍ جـدا، كان قليـل الـكلام، كان دائـم التفكـير، كان دائمـا مشـغول البـال كأنـه يفكـر في شيء، وبالفعـل كان يفكـر ليـس في شيء، بـل في أشـياء. بـدأت داخـل الفصـل وخارجـه تطـرق ذهنـه وتسـتدعي لبـه بعـض الأفـكار، بـدأ يفكـر ويفكـر حتـى أعيـاه التفكـير، وهَـدّه التخمـين.

تـوفي والـده وهـو صغـير، وتـرك الوالـدُ لأمـه ثلاثـة أبنـاء، تـرك الصغـير وابنتـيْن اثنتـيْن، كان الصغـير هـو الابـن الأكـبر، وهـذا السـبب جعـل تفكـيره تفكـيرا مضاعفـا، لأنـه كان يحـس بالمسـؤولية رغـم حداثـة سـنه.

بعدما:

مات الذي كان يحميها ويسعده فالدهـر من بـعـده بالفقـر أشـقاها

خرجـت الأم تبحـث في السـبيل علهـا تجـد عمـلا بسـيطا يعـود عليهـا ببعـض المـال تتخـذه وسـيلة لسـد حاجـات أبنائهـا الصغـار. النـاس تشـتهي مـا لـذ وطـاب، والصغـار لا يشـتهون شـيئا إلا الخبـز وقليـلا مـن الإدام الـذي أرهـق قـوى الأم، وتعبـت حتـى يأكلـوا هـذا الطعـام البسـيط.

عملـت في حِـرف عديـدة، جاعـت وضاعـت وسـط حومـة الحيـاة، ضاعـت بغيـة النجـاة، وكل هـذا الانقـلاب كان بعـد الوفـاة، تأثـرت ومـا نفعهـا التأثـر بـشيء، بـل نغـص عليهـا، ولـولا قـوة إيمانهـا لبقيت

ترقبها المأساة، وعاشت مثل أولئك البؤساء.

الصغير كان يراقب عن كثب ماذا يجري مع أمه، إنها:

الأم تلثم طفلها وتضمه حرم سماوي الجمال مقدس
تتأله الأفكار وهْي جواره وتعود طاهرة هناك الأنفس
حرم الحياة بطهرها وحنانها هل فوقه حرم أجل وأقدس؟
بوركتَ يا حرم الأمومة والصبا كم فيك تكتمل الحياة وتقدس

إنها الأم كذلك، إنها عينه التي يرى بها، وفؤادُه الذي يبصر به، وأفئدته التي يحس بها، لقد أضحى يرى كل شيء بعين بصيرة، ويد قصيرة، عين دامعة، وأذن سامعة.

كبُرتْ في السن قبل الأوان، شاخت قبل المشيب، باتت في الثلاثين من عُمرها كعجوز أرقها الدهر، من الأكيد أنها كذلك فعلت بها الهموم والأحزان، فالغم يفعلها، والمتنبي قائلها:

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم

هكذا انقلبت عليها الليالي بعدما كان زوجها يوفر لها وللأبناء كل الأشياء، بل كان يوفر عليها السؤال، كان يخرج طالبا رزقه، تاركا أفراخه، سائلا رب الوجود، داعيا في بكرة رب الخلود، عائدا عشية محملا، هذا لحم طري، وهذا سمك صِيدَ في يومه، وهذه خضر طازجة، وهذه فواكه لذيذة، والآن لم يبقَ شيء من هذا أبدا.

بعدما كبُر هم العائلة التي تسكن بيتا من صفيح -يحوله لهيب المصيف إلى فرن، ومطر الشتاء إلى بركة- قرر الصغير بعد طول تفكير، وطول معاناة أن يملأ ذهنه بديار الهجرة، بدأ يفكر فيها لأنه يرى وقت الصيف أن هناك من بين أبناء الحي من قصد بلاد الأنوار، وعاد بعد سنين قليلة بالمال الوفير.

مازاد الطين بلة هو أن الفتى أصبح جل كلامه حول أوربا وما فيها من النعيم، أصبح قوله ينبئك كأنه جال شوارع أوربا، ودخل مقاهيها، جال مدنها، وتعرف عواصمها، أصبح ينبئك كأنه تعرف فن إيطاليا أو أناقة إنجلترا أو حدائق سويسرا أو قطع

المحيـط الأطلـسي، وعـاش في أمريـكا، وقصـد ولاياتهـا، وزار بحيراتهـا السـاحرة، وصحاريهـا الغنيـة.

هكـذا مـلأ الفتـى الذهـن بسفاسـف الأشـياء وحقيرهـا، مـلأ عقلـه بالأشـياء الضعيفـة، والأفـكار السـخيفة، فطالـب العلم يذهـب مرفوع الـرأس إلى أوربـا أو مثيلاتهـا، والصغـير لا هـو طالـب علـم، ولا هـو صاحـب حـزم، ولا هـو رب فكـر.

بـدأ الصغـير يخاطـب أمـه وأختيـه عـن أوربـا ومـا فيهـا، بـدأ يحدثهـم عـن نعيـم المسـتقبل، وعـن أحـوال العائلـة في مقتبـل الأيام، فرحـت الأختـان، وحزنـت الأم، لأنهـا تعلـم مـا لا يعلمـه الصغـير، ولا تعلمـه الأختـان، علمـت أن ابنهـا الوحيـد شـغل أربَـه بالـسراب، لأنهـا كانـت تـرى أن كثـيرا مـن الأبنـاء كانـوا ضحيـة أوربـا، فـلا هـم فـازوا بـشيء في وطنهـم، ولا هـم عاشـوا الحـاضر، ولا هـم ذهبـوا إلى أوربـا، ولمـا ذهبـوا هـل عاشـوا في سـعادة كـما نراهـم في بلادنـا؟

حدث الصغير أمه:

- أمـي، عـما قريـب سـوف أذهـب إلى أوربـا، سـوف أذهـب -قاطعـا البحـر الأبيـض المتوسـط- إلى إسـبانيا أو إيطاليـا.

- هل تود أن تقول: إنك ستسافر إلى أوربا معززا مكرما؟

- ماذا تقصدين أمي؟

- أقصد أنك ستذهب بشكل قانوني.

- لا يا أمي، ليست لي وسيلة لبلوغ هذا الهدف.

- إذن ستذهب في قوارب الموت.

- نعم، ولا تخافي، ابنك واثق من بلوغ الهدف.

- لنفـترض أنـك وصلـت إلى أوربـا، ووضعـت رجليـك فيهـا، فكيـف سـتعيش دون مثـوى ودون إقامـة ودون أكل وربمـا دون شرب؟

- أمـي، مـا لـك متشـائمة هكـذا، قـد رأيـت الكثـير ممـن عـاد مـن إحـدى مـدن أوربـا، وهـو يعيـش حيـاة الـترف.

- لا يا بني، واسمع قول القائل:

لا تأخـذن مـن الأمـور بظاهـر إن الظـواهـر تخـدع الرائِـينَ

- يـا أمـي، مـا لـك والتشـاؤمَ، افرحـي، ابنـك سـيُخرجك مـن ضنـك العيـش إلى رغـده.

- سوف تضاعف حزني يا بني، وقلب الأم يُنبئني بذلك.

وهنا تدخلتِ الأختان. قالت الأولى:

- اتركيـه أمـي، ذات يـوم سـوف يُخرجنـا مـن هـذا الصفيـح، ونسـكن رياضـا أو قـصرا.

وتدخلت الأخت الأخرى قائلة:

- أمـي سـيُحضر لنـا الملابـس والأثـواب والهدايـا، وسـنركب سـيارة فاخـرة، ونسـافر بهـا إلى حيـث نريـد.

دمعـت الأم دمعتـين سـاخنتين فـوق وجنتيهـا، وخبـأت حزنهـا في صدرهـا بـين الأضلـع. هـي تعلـم مـا لا يعلمـه الصغـير، وتـدرك مـا لا تدركـه ابنتاهـا، هـي تعـرف وتتمنـى أن يعـوا مـا تقـول، وأن يفهمـوه جيـدا، هـم صغـار لا يدركـون مـا يخبئـه الدهـر.

بعدمـا قـرر الصبـي مـا قـرره قصـد صديقـا لـه في الأحـلام، ويقطـن هـذا الصديـق بالحـي المجـاور، وبينـما هـو قاصـد إيـاه التقـاه في الشـارع الرئيـس، نـاداه وسـلما عـلى بعضهـما سـلام الأحبـة، وجـرى بينهـما مـا جـرى:

- كنت أبحث عنك صديقي.

- أنا أيضا كنت أبحث عنك.

- دعنـا مـن هـذا، في هـذا الأسـبوع سـوف يقصـد بنـا السـفِنُ البحـر، هـل تعلـم هـذا؟

- لا أعلم شيئا يا صديقي.

- عليك إحضار المال الذي اتفق معنا عليه.

- نعم، لكن مازال ينقصني بعض منه.

- تدبر أمرك، المهم أن تحضر الدراهم.

- وأنـت مـن أيـن تدبـرت أمـر المـال، وأنـت لازلـت تلميـذا دون عمـل؟

- إنهـا أمـي، وفـرت بعـض المـال لنوائـب الزمـان ومصائبـه، لكـن

بقيت أبكي وأبكي في حضنها كي تُعطيني إياه، وأعيده إليها عندما أصبح رجلا ثريا. يجب أن أذكرك أنها لا تريدني أن أقطع البحر، هي متشائمة كليا، ومتأكدة أنني لن أحقق شيئا من أحلامي، وترى أنها مجرد أحلام وردية ليس إلا.

- لا تقلق جميع الأمهات هكذا، لكن غدا سوف تفرحها، وتفرح أختيك، وتفرح العالمين، أنا على يقين من ذلك، أنا متأكد من بلوغ الهدف المنشود.

في اليوم الموالي، وفي الصباح الباكر التقى الصديقان، وقصدا الربان متجهيْن نحو شمال المغرب، هناك تبدأ رحلة الأحلام، والتي تبدأ من مدينة البوغاز. وصلا في الوقت المحدد، التقيا بالربان، طمأنهم أن الرحلة ستكون – بعدما يكتمل شمل القارب الصغير- بعد يومين أو ثلاثة أيام، وبعدما ينهي السفِن ترتيباته.

بقي الاثنان يطوفان في شوارع البوغاز وأزقتها، ويتعرفان المدينة الساحلية الجميلة ريثما ينهي رب القارب كل الترتيبات لدخول الحلم المجهول، والغد المأمول.

بعد طول انتظار اجتمع السفِن مع أصحاب الأحلام، وأغلبهم من الشباب، كل واحد منهم له طموح في أن يكون ملكا، أو أن يكون أميرا، أو صاحب فخامة، أو ربا يحترمه الاحترام، ويجله الوقار. حفز السفِن الشباب، وصور لهم أوربا في أبهى الصور، وأجمل الحلل، طمأنهم أنهم سيضعون أرجلهم في أوربا بالتأكيد، وأنهم سوف يحققون كل الأماني.

ها هو القارب يطفو فوق الأمواج، وسطه شباب من مختلف الأعمار، قدموا من مختلف البقاع، دخل القارب وسط الظلمة الحالكة. الصديق وسط القارب لا يرى صديقه، والأنيس لا يرى أنيسه، الظلمة تملأ المكان، الأمواج تتمايل بالقارب يمنة ويسرة، وبتمايله تتمايل قلوب الشباب.

بلغ القارب مبلغه وسط اليم، وبدأت نشوة الشباب تزداد، وفجأة أصبح القارب وسط إعصار هدد الكل بالموت، وذكرهم

بالهلاك والنهاية، وقرْب الأجل. الدعوات تزداد بازدياد شدة الإعصار، والقلوب تخفق حتى نجا الكل من موت محقق، وواصل القارب سبيله حتى وصل شاطئا من شواطئ أوربا. نزل الجميع، الكل يركض في اتجاه مجهول، والكل يحرك ساقيه للريح، وينادي نفسي نفسي، يواصلون الركض حتى وصلت الأرجل غابة من غابات القارة العجوز، ولازال الجميع يركض...

افترق الصديقان بعد وصولهما أوربا، والسبب كان هو الجري الذي بدا فجأة دون سابق إنذار، والذي لم يشهدوا له مثيلا. وجد الصديق نفسه الآن وحيدا، وكم كان أسفه كبيرا حين وجد أن أوربا هي تراب في تراب بعدما كان يظنها بلادا من ذهب ولؤلؤ، وبعدما كان يظن أيضا أن فراشها حرير، بدأ يلعن نفسه وينادي وا حسرتاه، وا أماه، وا أختاه، تعذب من يومه، ولأول مرة يفترش التراب، ويلتحف السماء، شعر بالبكاء، وحن إلى أهله ووطنه، ونزلت دمعتان من عينيه، لأول مرة يحس بالغربة والضياع، يحس بالوحدة، يحس بالحرقة.

حقق الفتى حلمه، وصل إلى أوربا، وصل إلى البلاد التي كان يظنها ثراء في ثراء، عمل في كثير من المهن، وصاحب كثيرا من الناس رغم أن اللغة كانت تحول بينه وبينهم، تذكر أختيه، تذكر أمه، أيقن أنها تفوقه تجربة في الحياة، علم أنها كانت على حق، ظل سنوات كثيرة دون شهادة إقامة، وغير مُعترف به في بلاد المهجر، كأنه داء دخل إلى جسم إنسان. كان كثير البكاء، كثير الأحزان، أصبح كثير الشكوى، يفضل الشكوى والأنين حتى وإن شكا أموره لنفسه.

طالت السنوات، ووجد الصديق صديقه، تعانقا وتذكرا معا حالهما بالأمس، وكيف كانا يعيشان في نعيم كانا يظناه نقمة، أدركا أن من فاتهما سنا لابد أن يفوقهما تجربة وحنكة، كانا بالأمس يخاطبان العقلاء بالوهم، واليوم أصبحا على وعي بأنهما كانا في حُلم، وأن الحقيقة غير الحلم، وأن الحلم لا يقود إلا إلى

الألم، جرى بينهما الحوار، وكانا فيه عاقلين متعقلين:
- يا صديقي، أين كنت؟
- كنت في مدينة غريبة عني، وأنت؟
- أنا منذ أن وصلت إلى هذه المدينة، وأنا هنا، لم أغادرها إلا مرات قلائل.
- كيف هي أخبارك؟
- كثير الأحزان، قليل الأفراح، أضعت مجدا تليدا، ضيعت نعما في بلادي كنت عنها غافلا لاهيا.
- ما الذي ألهاك عن تلكم النعم؟
- ألهتني الأحلام. ضيعتُ وقتي ووقتك في الأوهام، وأنت كيف الحال؟
- حالي ليس أحسن من حالك، حالي حال البؤساء.
- الإقامة صديقي، هل حصلت عليها؟
- لا يا صديقي، إنها أصعب مما ظننت، وأنت هل حصلت عليها؟
- جربت طرقا عديدة، ولا أنا ظفرت بما سألتني.
- هل فكرت يوما بالعودة؟
- فكرت كثيرا في هذا، وأنت؟
- أنا أيضا فكرت في هذا، ولازلت أفكر فيه إلى يومنا هذا، وسأكون سعيدا إذا ساندتني في تفكيري، وبحثنا سويا عن طريقة كي نعود إلى النعيم الحقيقي، نعيم البلاد، والذي عرفناه بين هؤلاء العباد.
- أفرحتني كثيرا بكلامك هذا، الآن أنا متأكد من العودة إلى الفردوس.
- علينا أن نبحث عن طريقة لذلك.
- معك حق يا صديقي.

بدأ الصديقان مُجددا يفكران، وهذه المرة يريدان العودة إلى الوطن، حنا إليه، وصارا يرددان:

بلادي، هواها في لساني وفي دمي يمجدها قلبي ويدعو لها فمي
ولا خير فيمن لا يحب بلاده ولا في حليف الحب إن لم يتيم

فكرًا جيدا، لم يجدا الحل، نصحهما زميل لهما بالمتاجرة في الممنوعات، وعندما ستمسكهما السلطات سوف يقضيان بضعة أيام في سجن الغرب، ويُرحلان فيما بعد، وهذا بالفعل ما جرى معهما، بدآ التجارة التي لا تشابه التجارة، وأمضيا في مخططهما، والغاية واحدة، العودة إلى الديار بعد سنوات من الضياع.

في يوم مشرق جميل أمسكت السلطات بالصديقين، وهما في غاية السعادة لا الحزن، لأنهما سوف يقضيان أياما معدودات في السجن، صُدما عند دخولهما السجن، سجن فيه جميع ظروف الحياة، لا أنت ترى داخله عنفا أو عنصرية، فيه أجنحة عديدة، كل جناح يوحي لك كأنك في حلم، أمضيا بعض أيام ورُحِّلا إلى بلدهما، وعندما رأياه أبصرا النعيم، وأبصرا الفردوس، أبصرا أراض شاسعات، فيها الخيرات وافرات.

وصل صديقنا إلى مدينته التي يذكره كل مكان فيها بأيام صباه، وبعد دقائق أصبح في حيهم، حي المحبة، حي الطفولة، وحي الفقر، حي الاطمئنان، حي الوقار، حي الحب. وقفت سيارة الأجرة أمام باب المنزل، خرج الفتى الشاب من السيارة وطرق الباب، خرجت امرأة تقدم بها السن، يبدو من محياها أنها في حزن يعقوب على ابنه يوسف، فتحت البصر، رأت شابا وسيما تغيرت ملامحه كثيرا، لأنه فارقها منذ سنوات، صاحت الأم بصوت دوّى في المكان:"ابني، ابني، ابني...". التحايا كثرت، وأحرجت الولد وأبكته. خرجت شابتان من خلف الأم، قلبان يخفقان بالمشاعر، ويقولان:"أخي، أخي، أخي...". الكل أصبح مسرورا، والجميع كان مبهورا، الأدمع هنا وهناك، دموع الفرح، ودموع الزهو، ودموع العهد الجديد، ودموع القناعة، ودموع الرضى.

10 ذو القعدة 1436هـ/ 26 غشت 2015م

في العلم لا تقنع بما دون النجوم

درس خالد في المرحلة الابتدائية بمدرسة تفتقد لأبسط شروط المدرسة الحديثة، فلا رفه فيها، ولا ألعاب ترفيهية، ولا ملاعب رياضية، ولكنه كان عنوانا ورمزا للتحدي، فرغم المشاكل العويصة بالمؤسسة التي درس فيها فقد كان الألمعي باجتهاده المتواصل.

سَنة بعد عام وخالد في المقدمة داخل الفصول الدراسية، لا منافس ينافسه معارك العلم داخل المؤسسة أجمعها، اجتهاد وجد ومثابرة لا تعرف للكسل طريقا. هو دائم الحب للبيت الشعري الذي قاله المتنبي:

إذا غامرتَ في شرفٍ مروم فلا تقنعْ بما دون النجوم

لهذا السبب خالد يحب التفوق في الدراسة وغيرها، كُلما كان هنالك شيء يتعلق بالمنافسة إلا وجدت هذا الفتى حازما يَقِظاً لا يأتي الوسنُ إلى عينيه حتى ينتصر ويكون صاحب الفوز والنجاح.

المهم هو أن خالدا ينحدر من قرية نائية بعيدة كل البعد عن التحضر وما والاه، وأسرته أسرة متوسطة الحال، لا يدبر أبوه إلا قوت أسرته اليومي، وما عدا هذا من تطبيب أو شراء ملابس أو سفر قصد الراحة فلا تستطيعه هذي الأسرة، ولا تبلغه.

كان لتوسط حال أسرة خالد أكبر دافع نحو مجاراة النجوم، هو يحب أن يكون في يوم من الدهر بالقرب من منزلة النجوم، طالما قرأ عن أناس أصبحوا نجوما، لذاك هو كبير الشوق للوصول إلى مرتبة هؤلاء الناس الذين ارتقوا بجدهم ومثابرتهم وانتصارهم على نُوَب الزمان التي لا ينتصر عليها إلا أولو العزائم أمثال خالد.

إن هذا الطفل يسير في سبيل جيّد، لاسِيَمَا أنه -دائما- الأول في القسم. طال انتظاره لمُنافس ينافسه داخل القسم، وهو الآن قد انتقل من الابتدائية إلى الثانوية الإعدادية، وقد أخبره مُدرسه بأن عليه أن يطمئن لهذا الموضوع لأن الثانوية الإعدادية مليئة

بالمُنافسين وأولي الهمَم.

زار الولد إعداديته الجديدة، أعجبته كثيرا، هي أحسن من الابتدائية التي كان فيها، أساتذة كُثُر، وقاعات للدرس عديدة، ومكتبة للبحث والمُطالعة، وساحة واسعة، وملاعب للتربية البدنية والرياضة، وأشجار تزين المؤسسة خضرة، وورود وأزهار، وتلاميذ من مُختلف جهات المنطقة.

سجل نفسه بعدما عرف القسم الذي سيَدرس فيه ثم عاد إلى منزلهم. وفي بداية الأسبوع المُوالي ذهب خالد لثانويته الإعدادية من جديد، وسجل استعمال الزمن، وقصد أول حصة له في مرحلته الدراسية الجديدة، حضَرَ الأستاذ ودخلَ القسم. بدأ المدرس يتكلم عن النظام والانضباط داخل حجرة الدرس، وأبدى جميع التلاميذ الحاضرين رغبتهم في ذلك لِمَا للأمر من أهمية كبرى تستدعي الضرورة الوقوف عندها أولا، وبعدها بدأ الأستاذ يسأل المُتعلمين بعض الأسئلة ثم ترتفع الأيدي مُباشرة، وخالدٌ في حيرته لأول مرة، كيف لا يحار وقد وجد لأول مرة ما كان يبحث عنه منذ زمن بعيد؟ ما أجمل هذا المنظر في عيني خالد!

لم يتكلم خالد في حصص اليوم الأول نظرا لحيرته، كان -لابد- عليه في الأيام المُستقبلية أن يُحاول إثبات نفسه أمام زملائه الجُدد. حصة بعد أخرى وخالد والتلميذ نجيب في المُنافسة، وبعدما كان بقليل من الجُهد يُحصل خالد النقطة الأولى في مدرسته، هو الآن فوق كل جُهد، يعاني أياما وأياما مُتمنيا أن يبقى الأول كما كان، لكن هذا مُجرد تمنٍ أمام فائق الذكاء نجيب، هذا الذكي ابن مُدرس ثقفه والده ثقافة موسوعية، كان إلى جانب دروسه في المؤسسة يُسطر له الأب برنامجا مُكثفا في البيت كي يكون المُتفوق.

إن أب نجيب لا يعترف بالنقط، بل يعتبرها شيئا أساسيا، ويؤكد لابنه أن عليه إلى جانب النقط أن يُحصل معرفة تكون

معـه يسـتخرجها وقتـما أراد، وقـد أفلـح الوالـد في تلقـين ابنـه حتـى صـار يُـضرَب بـه المثـل في العلـم والأخـلاق.

نغـصَ نجيـب حيـاة خالـد وعذبـه، لكـن عَلِـمَ نجيـب أيضـا أنـه يُنافـس تلميـذا مـن طينـة الكبـار، ولطالمـا احترمـه وأجَلـه، لأنـه يكـون مـرة الأول، ومـرة أخـرى خالـد هـو الأول، وكل واحـد منهـما مُعجـب بشـخصية الآخـر. ورغـم صداقتهـما إلا أن كلا منهـما يُعـذب نفسـه تعذيبـا في المنـزل أثنـاء المُذاكـرة بغيـة المُنافسـة، وكـم كانـا فرحـيْن بهـذه الجديـة التـي تمنيـا أن تكـون في غيرهـما لـكي يطمئنـا عـلى بلدهـما، ويفخـران بـه في المسـتقبل.

وكـم كانـت فرحتهـما كبـيرة عندمـا حصَـلا عـلى النقطـة نفسـها في سـنتهما الأخـيرة بالثانويـة الإعداديـة، وأهـدت المؤسسـة جائـزة ومنحـة ماليـة قصـد التحفيـز والتشـجيع لـكل واحـد منهـما في حفـل بهيـج أُقيـم لهـذه المناسـبة، وقـد نـوه بهـما مديـر المؤسسـة الـذي عـبر عـن إعجابـه بهـما، ودعـا لهـما بمزيـد مـن التفـوق في المُسـتقبل ضاربـا بهـما المثـل لأقرانهـم، وقـد أذرف كل واحـد منهـما الدمـوع وتعانقـا عنـاق الأخويـن الشـقيقين.

الأحد 16 ربيع الثاني 1435هـ/ 16 فبراير 2014م

كل أثر مُبْدع فهو جديد

ناظر زيد المُنْتصر لما هو قديم عليا المولوع بكل ما هو جديد، والشيء المؤسف حقا فيما بينهما أن كلا منهما مُتعصب لرأيه، فكل واحد يرى أنه على صواب، وأن الآخر لا يسعى إلا إلى الخراب، وربما يعود السبب في تكوين كل واحد منهما.

زيد بحبه الكبير للأصول أصبح متضلعا في الثقافة نظرا لقراءته وبحثه وأخذه من الكتب، وعلي نظرا لهَوَسِه بالتكنولوجيا أضحى يرى فيها كل تقدم، فقد انتصر كل منهما لرأيه، ولم ينتصر للحوار، والأصل في كل حوار الاحترام، والاعتراف برأي الآخر خُلُقٌ نبيل.

قال زيد:إن التكنولوجيا لم تجلب على الأمة إلا الفتن والضمار. ورد علي غاضبا:لا، التكنولوجيا هي أساس التقدم الحالي، ألا ترى معي أن ما حققته الشعوب يعود في بادئ أمره إلى إيمان هذي الشعوب بالتقنيات الجديدة؟ وزيادة على ذلك مُد بصرك إلى الدول المتقدمة، فهي لم تحقق ما حققته إلا بالتكنولوجيا. ويرد زيد في لباقة:إذا كانت التكنولوجيا جالبة للمنفعة كما تفضلت، فما رأيك في تخريبها لعقول شباب أمتنا، هل من الحكمة أن يكون الشيء النافع ضارا في الآن نفسه؟ ويرد علي:ليس العيب في التكنولوجيا، ولكن أكبر العيب فينا نحن، فنحن هم الذين استغلوا الآلة في غير المنفعة، والنتائج سيئة لهذا السبب كما ترى، ألم تسمع بالناظم حين قال:

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا؟

يا زيد، تخيل معي لو أننا قمنا باستغلال التكنولوجيا بشكل إيجابي فمن اليقين أنك لن تقول أنها لم تجلب سوى الفتن. ويرد زيد قائلا:ربما لأنك مهووس بالتقنيات الحديثة فلهذا تدافع عنها، انظر في العصور السابقة حققت أمتنا مجدا وعُلا دون تقنية. وعلى هذا الكلام يعاتب علي زيدا قائلا:نعم، قد حققنا المجد فيما مضى من غابر الأزمان دون تقنية، لكن وجب أن تعلم أن لكل عصر خصوصياته، فكما كان للأزمنة السالفة خصوصياتها، كذلك الشأن بالنسبة لعصرنا، وخصوصية عصرنا

تلح على التكنولوجيا من أجل الرقي والتقدم والازدهار والمضي قدما إلى الأمام، وأنا لا أتحدث هكذا لكوني مهووسا بالتكنولوجيا، بل أدافع عن التقنية لأني أريد الخير والتقدم لأمتي.

أذن المؤذن لصلاة العشاء وقال زيد:

فلو شاء الإله لما افترقنا ولكن لا سبيل مع الأذان

هيا يا علي نصلي وبعد الفريضة نتمم هذا الموضوع الجميل. ذهب الاثنان إلى الصلاة، وبعد الفريضة التي يحرص كل منهما عليها، ويُعطيها حقها ولا يفرط فيها وقفا بالقرب من المسجد كما هي عادتهما دائما، واستأنف زيد الكلام قائلا:أرى من الممكن أن نعود إلى ما هو قديم كي نعيد بناء ذواتنا، كل بناء لابد له من أساس. هذا الكلام نزل كالصاعقة على علي الذي صاح بصوت عال مجلجل كالرعد:أتعرف ما تقول؟ هل تعتبر الرجوع إلى القديم سيُسهم في بناء الأمة؟ حسبتك عاقلا يا صاحبي، إن العطار لا يمكن أن يصلح ما أفسده الدهر، إن الرجوع إلى الأصول لن يعيد مجدنا.

وصلت المناظرة فيما بينهما إلى خروجها عن آداب المناظرة قليلا ولولا تدخل الشاب الوَرِع حليم لخرج كل منهما عن الصواب، هكذا تدخل حليم بعقلانية وابتسامة قائلا:ما بِكُمَا يا أصحاب الفضيلة؟ لماذا تريان أن كل واحد منكما مصيب فيما قال، وأن الآخر مخطئ؟ إنكما معا على صواب، بل رأي كل منكما ليس فيه عتاب. وردد زيد وعلي في آن: أوضح وأبن لنا عن قولك إنا نراك من المحسنين. ويقول حليم: أن نهتم بالتراث هذا لشيء لابد منه، انظر يا علي، هل الأمم التي ترى أنها صاحبة المجد بتكنولوجيتها فرطت في تراثها؟ إن جميع الأمم عليها أن تصون ماضيها من التلف، الدول عليها أن تبحث عن سبل لبناء الحضارة، لكن ليس على حساب ماضيها، وهذا عن ماضي الحضارات الزائفة، ما بالك بحضارة الحق؟ أليس من باب الوفاء أن نصون ماضينا من الضياع وأن نحميه؟ أظن أن

المسألة قد اتضحت يا علي، وأنت يا زيد هل تظن بالتراث وحده سوف نمضي إلى الأمام؟ بالطبع لا، من منطق العقل أن نساير التقدم، ومن أجل المسايرة لابد لنا من تكنولوجيا سوف أقول خدومة لنا بغية النهوض، وفي نهوضنا انبعاث للأمة. إن ما وصلنا إليه من خمول سببه عدم وعينا بأنفسنا وتقديسنا للقديم. نَعَمْ أيها الاثنان للأصول، ونعم للتقنية الجديدة التي أوصلت الإنسان إلى أماكن لم يكن ليصل إليها لولا التكنولوجيا.

كان كلام حليم بردا وسلاما على الصديقين، فقد أُعْجِبَا بما قاله حليم، وقد قال زيد:صدق القائل: كل أثر مبدع فهو جديد. إذن أرى أنه لا وجب ترك كل قديم، وعلينا أن نضيف على ذا الأثر شيئا من ما جد في التقنية. وقد رد علي:معك صواب يا صاح، وشكرا يا حليم، لأنك نبهتنا إلى الغلط الذي وقعنا فيه، إن في الاختلاف رحمة، ولولاك ما عرفتُ أن الاختلاف يؤدي إلى الائتلاف، وصدق حافظ إبراهيم حينما قال:

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأي الفرد يُشقيها

أشكرك شكر الصديق وشكر الرفيق، وأشكرك يا زيد لأنك علمتني أن الذي لا يعترف بأصوله هو القديم فعلا.

وهكذا يتدخل زيد قائلا:أشكركما معا، أتعرفان لماذا؟ أشكركما لأنكما علمتماني عدم التعصب للرأي، وكما أظن أن لي الصواب فيما قلته، فقد أكون مُخطِئا فيه، وقد يكون محاوري صاحب الفضيلة والرأي الصحيح.

هكذا يفوز كل من الصحب بنصيب من مبادئ الحوار، لقد تعلموا جميعا سبل الحوار، تعلموا أن للحوار مبادئ، فهموا أن للمناظرة آدابا، استوعبوا أن في تبادل الأفكار منافع، وأن الخطأ خطأ ولو كان عنه المرء مدافعا.

الجمعة 29 ذو الحجة 1435هـ/ 24 أكتوبر 2014م

كل صعب على الشباب يهون

هـا هـو ذا الشـاب الـذي قويَـتْ بنيتـه حديثـا، إنـه في سـن اليُفـع، وبـدأ يحـس بفُتُـو الشـبيبة، يـرى الدنيـا عـلى غـير النظـرة التـي كان يـرى بهـا الوجـود سـابقا، هـو الآن بالـذات وصـل إلى سـن حرجـة تُدخِـل الأغلبيـة إلى ظـلام لا نهـار بعـده، ودجـى لا صبـح يتبعـه، وفي هـذا يعمـل الشـيطان عملـه في ذا السـن، يُزَيـن للإنسـان عملـه، ويُريـه مـن الأمـور أجملهـا، ومثـل هـذا بغيـض إلى المـولى مقيـت، لا يعيـه إلا أولـو النهـى، وأصحـاب البصائـر الذيـن يُعملـون النظـر بالقلـب لا بالعـين تطبيقـا لقـول المـولى جـل وعلا:"إنهـا لا تعمـى الأبصـار ولكـن تعمـى القلـوب التـي في الصـدور".

إنـه سـن اليفـع ومـا صاحبـه مـن فكـر أقـرب إلى الضلالـة منـه إلى الهـدى، وأبعـد عـن الصـواب والاسـتغفار منـه للخطيئـة، هـذا سـن يعـد مفـترق طـرق، فـإن أعْمَـل فيـه صاحبـه العقـل قَطَعَـه في ثبـات، وإن غيـب فيـه صاحبـه التحليـل كان عرضـة لهـلاك محقـق في الدنيـا قبـل الآخـرة.

يُخيـلُ لصاحبنـا -في سـنه- أنـه ملـك الملـوك، وسـيد الـكل. هـو محـق في خيالـه لمـا لهـذا السـن مـن وصـول الخيـال إلى ذروتـه، ووصـول الفلسـفة إلى قمتهـا، لكـن ليتهـا كانـت فلسـفة أفلاطونيـة قائمـة عـلى التعمـق في المـآل، وممعنـة في الحكمـة. الفلسـفة حكمـة، وصاحبنـا لا تقـوده فلسـفته إلا للمـوت البطـيء.

بمـا أنـه في سـنته الأخـيرة بالثانويـة الإعداديـة، فإنـه يـدرس الـدرس ولا يُذاكـر في البيـت، ويُكلَـف بأعـمال دراسـية في المنـزل فـلا يُنجزهـا، وأصبـح ضَجِـراً مـن الـكل، وغضبـان لا آسـفا ولا متأسـفا. لأتفـه الأشـياء يقيـم الدنيـا ويُقعدهـا، ويميـل إلى الحـزن، ولا يَنـزع إلى فـرح، ويهجـر الصحْـبَ والأحبـاب، فـماذا جـرى لهـذا الشـاب؟ وأيـن ذهـب المـرح والضحـك؟ وكيـف سـمح لنفسـه بـأن تتقاذفـه الأمـواج مـن كل جانـب؟

هـذه أسـئلة وأخـرى الزمـان وحـده هـو القـادر عـلى كشـف أغوارهـا، ومـا يُخيَـل إليـه مـن أخيلـة شـبابه الـذي عـرج عـن بدايتـه.

رأى تلميـذ صاحِبَنـا الشـاب في مأسـاته داخـل المدرسـة، وتذكـر أن صاحبنـا يمـر بالتجربـة التـي مـر بهـا هـو قبـل سـنة، وصـف لـه الـدواء، ويـا ليتـه كان دواء، وحـدد لـه المخـرج مـن همومـه، ويـا ليتـه تركـه في حزنـه، أدلـه عـلى السـبيل. أخـرج مـن سروالـه مـن جيبـه الأيمـن قطعـة ملفوفـة، تنـاول شـيئا يقـارب النصـف، وأعطـى لصاحبنـا الحزيـن النصـف الآخـر، وبعـد دقائـق معـدودات بـدأ التفاعـل، ووصـل المفعـول قمتـه.

قطعـة صغـيرة مفعولهـا كبـير، بـدأ الضحـك أمـام بـاب المؤسسـة، إنـه ضحـك عـلى أتفـه الأفعـال والأقـوال تُجْـرى أمـام ناظريْهِـما، وإنهـا هيسـتيريا بـل جنـون مفـرط، والـكل يتسـاءل مـن التلاميـذ الذيـن يعرفـون فلانـا صديقَنـا، ويقولـون في قـرارة أنفسـهم ربمـا فـلان خـرج مـن كبوتـه، وهـو الإنسـان الـذي عُـرِف بـين زملائـه في السـابق بالاسـتقامة وحسـن الخلـق، وبالأخـلاق والشـيم العاليـة، والتفـاني في الجـد والعمـل، والمُثابـرة والصـبر في تحصيـل العلـم.

في الغـد يسـأل صديقنـا عـن صديـق البارحـة ويُجـاب عـلى أنـه في المقهـى المجـاور الـذي يوجـد عـلى بعـد أمتـار مـن المؤسسـة. وهـا هـو يجـده في عينـين محمرتـين مـن كـثرة التدخـين، وفي نشـوة تزيـد عـلى نشـوة الأمـس بكثـير، يتبـادلان السـلام، ويُنـاول الجالـس خليلـه بسـيجارة ليدخنهـا، هـو الآن بعـد نشـوة أمـس لـن يرفـض، فقـد أخذهـا، وعـاش معهـا في لـذة وسـكون، ودونمـا أن يكلـم صاحبـه، وهـو يحلـم الآن بقطعـة مـن قبيـل البارحـة، وصاحبـه فـك الشـفرة قبـل السـؤال، هـو معتـاد عـلى مثـل هـذي التجـارب. يُدخـل يـده في الجيـب -مجـددا- كي يخـرج الكنـز، ويسـتخرج تـاج الملـوك، ويـناول صديقـه نصفـا ويـأكل نصفـا. مـا أبغـض المنظـر! ومـا أتفـه اليُفـع والشـباب إذا ضاعـا بـلا رجـوع! ربمـا يحـن الإنسـان إلى هـذا السـن عنـد كـبره، ويُنشـد -في تمَـنٍ- بيـت أبي العتاهيـة المشـهور:

ألا ليـت الشـباب يعـود يومـا فأخـبره بمـا فعـل المشـيب

توالـت الأيـام والشـهور، وصديقنـا عـلى هتـه الحـال، نشـوة بعـد أخـرى، وفـرح خارجـي وحـزن باطنـي، إنهـا حيـاة مقيتـة زائفـة. بعدمـا كان مـن الأوائـل في الصـف قـد أضحـى مـن أواخـر مـن في القسـم، كانـت لـه أحـلام وطموحـات، وكانـت لـه في الفكـر صـولات وجـولات، لكـن جـار الصحـب عليـه، وبَـدَلَ أن يُغـيروا بالإيجـاب غـيروا إلى السـلب، ولكـن الشـاعر يقـول:

كل صعـب عـلى الشـباب يهـون هـكـذا هـمة الرجـال تكـون

يُـردد الشـاب هـذا البيـت، وفي نفسـه ثـورة عـلى الوضـع الراهـن، وعاصفـة عـلى الأخـلاء السـلبيين، ونـار تشـتعل في الداخـل، ونفـس تتوقـد وتقـول لصاحبها:"اسـتفق مـن سـباتك يـا هـذا، واسـتغفر اللـه، وعـد إلى الرشـد"، ولكـن كيـف لـه إيجـاد الطريـق؟ الطريـق مـليء بالأشـواك بَـدَلَ الـورود.

بـدأ الفكـر يُبعـد عـن الشـاب شـيئا مـن انحرافاتـه، وبـدأ يُخمِـن ويـضرب أخماسـا في أسـداس، وبـدأ يُعمـل العقـل، لكـن لابـد مـن أسـباب قويـة ترمـي بهـذه السـلوكات جانبـا. هـو إن فتشـت تاريخـه وجدتـه قـادرا عـلى المحاولـة، وهـو يحـن للعـودة إلى أيـام عـزه التـي كان فيهـا مرجعـا في المعرفـة لباقـي زملائـه مـن الطلبـة، الـكل كان يُجلـه لطموحـه الكبـير، ومعرفتـه المثاليـة، وسـعيه نحـو العـلا.

إنـه قـادم في مِشـية ثقيلـة رتيبـة، كان شـارد الذهـن مهـزوز الفـؤاد، بـل مهتـز الوجـدان، والشـيخ الـذي يَقطـن بالقـرب مـن منزلهـم قـادم في وقـاره، تبـدو الحكمـة منـه مُشـعة ناظـرة، يُلقـي الشـاب عليـه التحيـة ويبادلـه بتحيـة أحسـن منهـا، ويُتبـع الشـيخ الحكيـم تحيتـه بقولـه:

- ما بك أراك شارد الذهن؟

يرد الشاب قائلا:لا شيء يا عمي.

الشـيخ يعلـم مـا يقـول، فقـد وصلـت أخبـار إلى سـمعه تؤكـد أن الشـاب غـارِق في بحـر الانحـراف، ولحسـن حـظ الشـاب أن هـذه

الأخبـار لم تصـل بعـد إلى أبَويْـه، والحكيـم يـودُ الالتقـاء بالشـاب صدفـة، وينتظـر الفرصـة المواتيـة لفتـح الموضـوع مـع مـن يعنيـه الموضـوع مباشرة، وفي نفسـه في هتـه اللحظات يـردد قـول زعيـم كل المرسـلين:"المؤمن للمؤمـن كالبنيـان يشـد بعضـه بعضـا".

يحفـظ الحكيـم قـدرا يسـيرا مـن الحديـث، وقـد زاد هـذا في حكمتـه. هـو يسـعى -دومـا- إلى التغيـير في لـين ولطـف ولباقـة وحسـن كلام. في كلامـه الخافـت خـير دليـل أنـه رجـل خـبَر الأيـام، وتعـرف أسرارهـا وخباياهـا، وزاد عـلى ذلـك أنـه مـر بتجـارب كثـيرة مـن مثـل تجربـة الشـاب.

أعـاد الحكيـم السـؤال، ولعـن الشـاب الزمـان، ثـم رد الحكيـم بصوتـه الخافـت:

- لا يـا بنـي لا تلعـن الزمـان، واسـتغفر، الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم يقـول في الحديـث الـذي رواه مسـلم في صحيحـه:"لا تسـبوا الدهـر فـإن اللـه هـو الدهـر، بيـده الأمـر يقلـب الليـل والنهـار"، وقـد جـاء في صحيـح البخـاري أيضـا قـول الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم قال:"يقـول اللـه تعـالى: يؤذينـي ابـن آدم، يسـب الدهـر وأنـا الدهـر، بيـديَ الأمـر أقلـب الليـل والنهـار". مشـكلتك يـا بنـي لهـا حـل إذا مـا وثقـت في الخالـق جـل جلالـه. اسـتغرب الشـاب لمعرفـة الشـيخ بمـا يجـري معـه في هتـه الأيـام، وأيقـن أن مـا يقولـه النـاس عـن الشـيخ صائـب، هـو حكيـم فعـلا. أَضْحَـكَ الشـيخ الشـاب في أول الأمـر كي تسـهل محاورتـه، ومـن تـم بـدأ الحديـث المفيـد الأخـاذ، والحكيـم في كل هـذا يسـد أسـئلة الشـاب سـؤالا سـؤالا، ويُعطيـه الأجوبـة الشـافية الكافيـة في يُـسر دون عُـسْر، ويسـتدل لـه بـكل استشـهاد في الموضـوع حتـى أصبـح الشـاب بـروح أخـرى، وتذكـر أن الشـمعة لمـا تَقـرُب مـن الانتهـاء تـزداد أكـثر لهيبـا، وأن مـع العسـر يـسرا، وأن الشـدة لابـد لهـا مـن رخـاء، وأنشـد للشـيخ بيتـا مـن الشـعر يقـول صاحبـه:

وكـل شـديدة نـزلت بقـوم سـيأتي بعـد شـدتها رخـاء

فـرح صاحبنـا بنفسـيته الجديـدة، وأفـرح الحكيـم، ولكـن الأيـام قادمـة، والشـمس لابـد لهـا أن تـضيء الدنيـا مهـما طـال الغـمام واشـتد المطـر. والصبـح لابـد لـه مـن بـزوغ، والنفـوس القويـة لابـد لهـا مـن تحقيـق المجـد خاصـة إذا أكـثرت مـن الاسـتغفار، والـذي يزيـل الكـرب، ويزيـل الضيـق، ويقـضي عـلى الهمـوم، ويجلـب الـر زق.

عـاد صاحبنـا بمسـاعدة الحكيـم إلى سـابق عهـده، تقـدم في الـدروس، نقـط عاليـة. وقـد أثمـرت الجهـود بنتيجـة أولى عـلى صعيـد المؤسسـة، والأجمـل مـن هـذا أن الشـاب لم يَحْقِـدْ عـلى صديقـه وزملائـه الذيـن أخرجـوه الطريـق، بـل قـرر أن يَقتنـيَ كتبـا في علـم النفـس وعلـم الاجتـماع متخصصـة في التربيـة كي يُقـوي زاده مـن المعرفـة في هـذا الشـأن، ومـن تـم إفـادة أصحابـه.

نجـح في المحاولـة، وأنجـز برنامجـا مُكثفـا لزملائـه قصـد الإقـلاع عـن تلـك السـلوكات السـيئة، مـا بـين المُذاكـرة وإياهـم، والملازمـة للـدروس صُحبتهـم. كـما أنشـأ بتأطـير مـن مدرسـيه أنديـة تربويـة في المؤسسـة، وأنشـطة ومسـابقات ثقافيـة، ورحـلات وأسـفارا. كان لـه مـا أراد وتمنـى، وجلـب عـددا غـير يسـير مـن زملائـه، واسـتمر الأمـر عـلى هـذا النهـج حتـى كَـثُرَ العـدد، وكرمتـه المؤسسـة بجائـزة في حفـل آخـر السـنة، وأثنـاء تسـلمه الجائـزة نـوه بصديقـه الحكيـم وفضلـه عليـه فيـما وصـل إليـه.

إلى جانـب الوقـت المـليء للشـاب -بسـبب برنامجـه الطمـوح- كان يُجالـس الشـيخ في كل نهايـة أسـبوع، يُناقشـان موضوعـات لهـا علاقـة بالديـن، أو بـالأدب، أو بالسياسـة، أو بـشيء مـن الثقافـة العامـة. أضـاف الحكيـم شـيئا جديـدا إلى الشـاب، إنـه عـالم الكتـب الـذي زاد مـن ثقافـة الشـيخ حتـى لُقـب بالحكيـم، زرع في حديثـه المُتواصـل عنهـا حـب الكتـب إلى الشـاب حتـى أصبـح يُخيـل لِشَـابنا أنـه لا شيء مـن دونهـا، واسـتمرت الصداقـة، وأدرك الشـاب مغـزى قـول أفلاطون:"حافـظ عـلى كل صديـق أهدتـه إليـك الشـدائد".

واستمر النجاح نجاحا تلو آخر، وانتصارا بعد كد وصبر وجهد، لكن لابد لهذا العناء من نتيجة، ولابد للبحار من سفينة، ولابد لكل شاب من صداقة أمينة.

الإثنين 3 ربيع الثاني 1435هـ/3 فبراير 2014م

كن بلسما إن صار دهرك أرقما

كانا كل واحد منهما يحب الآخر، لا يفترقان إلا لقضاء حاجة في منزليهما، وطدت الدراسة الطويلة مع بعضها صداقتهما، وأصبح يرى كل واحد منهما نفسه في الآخر، يناقشان سويا، يسافران معا، يحزنان معا، ويفرحان.

إنهما محمود ومؤنس، صديقان يعرف كل واحد منهما الآخر زمن الرخاء، كما يعرف كل منهما الآخر وقت الشدة والشقاء، وفي اشتداد الأزمات، ووقت البلاء.

محمود حامد لله، متفائل في الوجود، بينما مؤنس رغم أنسه باسمه، وفخره بحروفه، هو ليس بالمتشائم، ولكن لا يضع ثقته في المستقبل، كل شيء عنده قابل للنقاش، قابل كل شيء عنده للتحليل، وكل الأمور عنده للتأويل، حتى وإن استدعت الأمور عنده التفصيل، هو لا يبخل في الحوار، ويبقى زاده الجميل والأرقى في حواراته أنه لا يتعصب لرأي، ولا ينتصر لمذهب، بل مذهبه الإسلام وكفى، وقدوته قدوة المسلمين النبي المصطفى.

ذات يوم وهما مسافران علهما يتمتعان، جرى بينهما حوار طال بطول أيام السفر، إذ ناقشا بعضهما في مواضيع كثيرة تشغل بال كل شاب.

- محمود، تعرف أني دون عمل مذ أمد صديقي.

- نعم، لكن رب الأرباب لن ينساك، ربما هو اختبار من المولى.

- صديقي، لقد ادلهمت واسودت حياتي.

- مؤنس، لا تقل هذا، ألست أنيسي ورفيقي؟ ألم أتعلم منك الصبر يا مؤنس؟ اصبر صبرا جميلا. أنا متأكد أن الله سوف يعوضك خيرا.

- فعلا أنا أنيسك وأنت أنيسي، لكن الصبر يا صديقي له درجات، قد عرفتني متجلدا، ويوما بعد يوم ينقص صبري، ويكثر تفكيري في المستقبل المظلم.

- ليس مظلما، وإنما مستقبلك سيكون زهرا بحول الله، وإن شاء. أنت تعرف أني أعمل منذ ثلاث سنوات، وصداقتنا كنتَ خائفا عليها من الضياع، وكم هو جميل أنها بقيت صامدة أمام كل المصاعب، وكنتَ في بداية عملي تقول لي بيت إيليا أبي ماضي:

لما صديقي صار من أهل الغنى أيقنتُ أني قد أضعت صديقي

- كنتُ أمازحك فقط، كنتُ أعلم أن صداقتنا صلة تجمعنا، وهي الأوْلى من كل شيء يفرقنا.

- ما أود أن أقوله لك -يا صديقي- هو أني في بداية عملي كنت متحمسا، أعمل بجد ونشاط، وأذهب قبل موعد العمل بنصف ساعة أو أقلها.

- وماذا جرى اليوم؟ لا تقل لي أنك لم تعد من أهل الالتزام.

- مازلت، لكن أصبحت الأمور عادية أخي. هذه هي الحياة الدنيا، الصغير يود الكبر، والكبير يتمنى الصغر، أنتَ تود العمل، وأنا ضجِرت، واقترحت عليك السفر ولم ترفض، وآخر أتعبه ماله، وآخر أتعبه فقره، وفي هذا يقول الشاعر:

صغير يطلب الكبرا وشيخ ودّ لوْ صغُرا
وخالٍ يشتهي عملا وذو عملٍ به ضجِرا
ورب المال في تعب وفي تعب من افتقرا
وذو الأولاد مهموم وطالبهم قد انْفطرا
ومن فقدَ الجمال شكا وقد يشكو الذي بَهَرا
ويشقى المرء مُنهزما ولا يرتاح مُنتصرا
ويبْغي المجد في لهفٍ فإنْ يظفرْ بهِ فترا
شكاة ما لها حكم سوى الخصمين إن حضَرا
فهلْ حاروا مع الأقدار أم همْ حيروا القدرا

- شعر بحق جميل وروعة، علي أن أحفظه كي أجعله لي حِصنا منيعا لتخميناتي، وأجعله مؤنسا لي أثناء وحشة فكري.

- عليك بذلك، الأقوال الجميلة، والعِبَر عن الآخرين تبقى خير

حكمـة، والحكمـة باقيـة أبـد الدهـر.
- صدقت يا صديقي، أصلح الخالق حالك، وأعاد النشاط إليك.
- شـكرا يـا صاحبـي، وأدعـو اللـه أن ييـسر حالـك، وتجـد عمـلا يـسرك في قريـب عاجـل، يجعلـك بـاق عـلى التقـوى، ويجعلـك ذاك الفتـى مؤنـس الـذي عرفتـه سـنوات ماضيـة.

وصـل الشـابان إلى المـكان المقصـود، لقـد أعجبـا بسـحر المدينـة التـي قصداهـا، كانـت يُـروى عنهـا لهـما، كانـا يسـمعان عنهـا، وإذا بهـما الآن تسـحرهما. بحـر أزرق، شـوارع نظيفـة، مقـاهٍ أنظـف، مسـاجد كثـيرة كأنهـا القصـور، ومتاجـر للتسـوق أقامهـا أوليـاء الأمـور، مدينـة سـاحرة، مليئـة وهادئـة، إنهـا أحسـن مـما سـمعاه، وهـل مـن سـمِعَ كمـن رأى؟
- مؤنس، ما هذا السحر؟
- بالطبـع سـحر فـوق السـحر، وصـدق يـا صاحبـي مـن قـال هـذا الشـعر في مدينـة أخـرى:

أين من عيـني هاتـيك المجالي   يـا عـروس البحــر يا حلـم الخيال
أيـن عُـشـاقُكِ سُـمـار اللـيـالي   أيـن مـن واديـك يا مهـد الجـمال
موكـبُ الغيــد وعيـد الكرنــفال   وسرى الجنـدول في عرض القِنال

- كنـا نسـمع عنهـا، إذا بهـا فـوق مـا سـمعنا. مـن أقامهـا لابـد أنـه سـهر الليـالي، ولابـد أنهـا ليسـت عبقريـة إنسـان واحـد، الواحـد لا يمكـن لـه أن يُظهـر مدينـة في هـذه الحلـة، لابـد أنهـا أتعبـت عباقـرة كثيريـن حتـى أصبحـت عـلى هـذا الشـكل.
- معـك حـق، لابـد أنهـا شـغلت بـال مسـؤوليها، ولابـد أن هـؤلاء المسـؤولين كان مـن بينهـم المهنـدس والبنـاء، الطبيـب والممـرض، الأسـتاذ والمعلـم، الشـيخ والطالـب... بحـق أخـي أرى أن اجتـماع هـؤلاء خلـق لنـا المشـهد الجميـل الـذي نبـصره الآن، والسـمفونية الرائعـة التـي نشـاهدها في هـذه اللحظـة.
- لا أخفيـك سرا أني عندمـا وطـأت رجـلاي ثـرى هـذه المدينـة تمنيتهـا مدينتـي، هـي فـوق تلـك المدينـة الجميلـة التـي نعيـش فيهـا.

- من يتمنى ألا يعيش في مدينة كهذه؟
- أخي المسألة مسألة جد وحزم في العمل فقط.
- صحيح صاحبي، تخيل لو كنتُ أنا وأنتَ نعمل بجد، والتعليم في جد، والصحة في جد، ووزارة العُمران في جد، وكل الباقين في مدينتي يعملون بجد، أظن أن مدينتنا آنذاك ستكون مثل هذه المدينة أو أحسن.
- أحسنت التحليل خِلي، ودعنا من هذا الموضوع نمتع البصائر والأفئدة بما نراه في هذه اللحظات، وما سنراه أيام الإقامة بهذه المدينة السحر من جمال وحسن.

بعدما سَحرت المدينة الشابين قصدا فندقا من الفنادق باتا فيه، وعند الفجر لم يمنعهما التعب من الاستيقاظ والذهاب إلى المسجد لصلاة الصبح كعادتهما في مدينتهما. وبعد أداء الفريضة، وعودتهما إلى الفندق اتجها كل واحد إلى القرآن الكريم، محمود يُراجع قليلا مما حفظه سابقا، ومؤنس يقرأ وِرْدَه اليومي، وبعدما أنهيا جرى بينهما ما جرى من حوار في كتاب الله.
- أيْ محمود، كم أشعر بالراحة في هذا الصباح.
- ألم تكن تقرأ بعد قليل في كتاب الله؟ كيف لا تحس بهذه الراحة والقرآن راحة؟ فقد ثبت في الصحيح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا غشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده". نحن الآن لا نتكلم إلا في كتاب الله، ومن الأكيد أننا معا سنكون في فرح، وفي طمأنينة وسكينة.
- أحسنت يا صاحبي، الشاعر قال:

أرِحْ قلبي بترتيل الكِتاب فإن الهم يسكن في ثيابي
أرحْ قلبي بآي من ضياء فبالقرآن يرجع لي صوابي
وبالقرآن تشرق شمس فكري لِيَطْمس نورها زيف الشهاب
وبالقرآن نشرب من معين ونترك ما يلوح من الشراب

وبالقــرآن تـسبـقــنا خـطــانــا فنصعـد بالخُطـى فـوق الرحاب
بـربــك حامــل القــرآن رتــل وشــنفنا بــذي المسـك الملاب
بربـــك حامــل القــرآن رتــل فهـــذا الكـون مَــلّ من الخراب

- مـا شـاء اللـه، شـعر يسـحر الألبـاب، يحـير العقـول، مـن أيـن أتـاك هـذا المحفـوظ صديقـي؟

- أتـاني عـن طريـق الطريقـة التـي اكتسـبت بهـا أنـت عِلْمَـكَ، ألسـنا صديقـين نسـتفيد مـن بعضنـا البعـض؟

- بـلى، لكـن ظننـتُ أنـك وجـدت طريقـة أخـرى في القـراءة، فقـد بـدا لي مـن نقاشـاتنا في هـذي الأيـام أنـك زدت علـما، وزدت تفقهـا.

- لا يـا صديقـي، طريقتـي في التفقـه هـي طريقتـك، وأنـت تعـرف أني إذا تعرفـت طريقـة جديـدة سـوف أخـبرك بهـا أولا كي نسـتفيد منهـا معـا. لا وجـب أن أنكِـر أنـك أيضـا زدت معرفـة، يبـدو أنـك لازلـت تأنـس في قـراءة الكتـب.

- أجـل يـا صديقـي، الكتـاب خـير أنيـس، والمتنبـي يقـول فيـه قـولا رائعـا:

أحَب مكان في الدنى سرْجُ سابِحٍ وخيـر جليـس في الزمـان كتـابُ

لا يُمكِننـي أن أجـد بديـلا عنـه في حيـاتي، هـو الرفيـق الصديـق، هـو غايـة كل دارس يريـد أن يكـون في الفكـر عميقـا، هـو الـوفي المؤنـس، هــو الجليــس المخلــص، هــو خــير الأصحــاب، هــو خــير الرفــاق والأحبـاب.

- مــا أســعدني حــالا في هــذه اللحظــات! لقــد ذكرتنــي في كلامِــكَ الأخـير فيـما قالـه الشـاعر عـن الكتـاب:

يــا كتابــي يــا كتابــي أنــت لي خــير الصحــاب

إنـه صراحـة خـير الصحـاب، جميـع مـن يقـرؤون –قديمـا وحديثـا- أكـدوا هـذا، إنهـا حقيقـة لا خيـال، وواقـع لا يشـتريه الـورى بالمـال.

- هل سمِعت قول الشاعر حين أنشد وقال:

ما تطعـمـت لــذة البـيــت حتى صرت للبيت والكتاب جليسا

- صديقـي أرى أنـك متعـتَ مسـمعي هـذا اليـوم، دع لي قليـلا مـن

الثـواني أتأمـل فيـما قلتـه.
- لك ما تتمنى وتطلب.
بعـد هـذا الحـوار الفكـري يقـرر الصديقـان الذهـاب إلى ضايـة بالقـرب مـن مدينـة سـفرهِما بكيلومـترات قليلـة، ويـأتي قرارهـما هـذا بعدمـا سـمِعا أن هـذه الضايـة جميلـة للغايـة، ولأجـل هـذا الغـرض اسـتقلا سـيارة أجـرة أوصلتهـما إلى المقصـود. وفي هـذه الضايـة يُصابـان مجـددا بالذهـول والحـيرة مـما يُبصرانـه.
- صديقي مؤنس، لم يُقَل لنا هذا.
- لا يا صديقي كلما نراه الآن قيل لنا سابقا.
- أنـا أقصـد صديقـي أنـه قيـل لنـا أن الضايـة جميلـة رائعـة ، ولم يُقَـل لنـا أنهـا سـاحرة، ولم يُقَـل لنـا أنهـا تُذهـب العقـول. انظـر يـا صديقـي، إنهـا ضايـة فقـط، انظـر إلى الفنـادق المطلـة عليهـا، وفتـحْ الجفـن في المقاهـي الكثـيرة القريبـة مـن مياههـا، وانظـر إلى مدينـة الملاهـي تلـك، هـل تـرى صاحبـي مـا أرى؟ انظـر إلى الفـرح في وجـوه أنـاس يمشـون فـوق الـثرى.
- جميلـة بـكل المقاييـس، بنيـة تحتيـة زادتهـا أكـثر جـمالا. لـو لم تكـن هـذه التجهيـزات ربمـا اختبـأ علينـا هـذا الجـمال ومـا رأينـاه.
- انظـر إلى النظافـة، كل شيء في مكانـه، يـا لجـمال المدينـة وضايتهـا! وا حصرتـاه عـلى مدينتـي.
- لماذا تتحصر؟
- كنـت أظـن أن جميـع المـدن مثـل مدينتـي، لكـن ثبـت لي عكـس ذلـك في سـفرنا هـذا. إنـه الجـمال أخـي، الجـمال يـأسر الألبـاب، الحُسـن أخـاذ، صـدق إيليـا أبـو مـاضي حينـما غـرد:
ومن لا يرى الحُسن فيما يراهُ فـما هـو بالـرجـل الألـمـعـي
- مـا أسـعدني، ربمـا أكـون في هـذه الثـواني أسـعد إنسـان، أنـا أسـتمتع بجـمال الضايـة، وبحُسـن الاسـتماع، هـذه الكلـمات تخـترق جسـم الإنسـان إلى دواخلـه، هـي تتغلغـل شـيئا فشـيئا إلى أن تُحسـها الجـوارح والأفئـدة. مـا أروعهـا مـن كلـمات! ومـا أجملهـا مـن مدينة!

كي يُواصل الصديقان المتعة ركبا في قارب من القوارب الموجودة في زاوية من الضاية، وشغلا المحرك بعدما أرشدهما الميكانيكي المسؤول عن قوارب الضاية على كيفية تشغيله. دخلا ودخلا، وكلما واصلا الدخول زادت المُتعة وزاد النقاش.

- صديقي، قُمْتُ أنا وإياك برحلات كثيرة، لكن ستبقى هذه الرحلة بطعم خاص.

- لا شك في ذلك، ربما سوف تبقى الأخلد، يُقال يا صديقي:"سافرْ تجد عِوضا عمن تُفارقه"، وفي هذه المدينة وجدنا العِوض.

- هذا مما لا شك فيه ولا ريب.

تمتع محمود ومؤنس بسحر المدينة وحان موعد عودتهما، فضلا هذه المرة أن يستقلا القطار كونه أسرع من الحافلة وسيارة الأجرة. وفي طريق العودة أهان شخص محمودا بدعوى أنه زاحمه أثناء صعود القطار، فرد عليه محمود بابتسامة جميلة، وبكلمات دخلت في قلب المُسافر، وغيرت غضبه إلى سرور، وجزعه إلى حبور، وهذه الحادثة خلقت للثنائي موضوعا آخر.

- أحسنت التصرف، هكذا يكون العقلاء.

- إنها الأخلاق يا صديقي، من الطبيعي أن يغضب المرء في مثل هذي المواقف، لكن عليه أن يُغالب غضبه. أنا -بالطبع- غضبان الباطن، لكن علي أن أفعل شيئا كي أهدئ من الرجل بسرور ظاهر.

- الشيطان يترصد الإنسان أينما ذهب.

- صبرت فقط، والله وفقني حتى أمكنني مُخاطبته وإقناعه، وإعادة البسمة إلى شفتيه.

- يقول إيليا أبو ماضي قولا جميلا في هذا. اسمع معي هذه الأبيات:

كن بلسما إن صار ظهرك أرقما وحلاوة إن صار غيرك علقما
إن الحياة حبَتك كل كنوزها لا تبخلن على الحياة ببعض ما

أحسنْ وإنْ لم تجْزَ حتى بالثنا أي الجزاء الغيث يبغي إن همى؟
من ذا يُكافئ زهرة فواحة أو من يُثيب البُلبل المترنما؟
عُد الكرام المُحسنين وقسهمُ بهما تجدْ هذين منهم أكرما
يا صاح خذ علم المحبة عنهما إني وجدت الحب علما قيما
لو لم تفُحْ هذي، وهذا ما شدا عاشت مُذمة وعاش مُذمما
فاعملْ لإسعاد السوى وهنائهم إن شئت تسعدْ في الحياة وتنعما

إني كلما ضاقت علي الدنيا أقرأ قليلا من القرآن، وأقرأ مثل هذه الأبيات، أنا أحفظ منها الكثير.

- لا تقل لي هذا، أنا صديقك المُقرب منك، أعرف أنك كثير الحفظ، لهذا إذن ألقبك بالحافظ.

- لا تُضغضغ مشاعري.

- هذه الحقيقة، والحقيقة شمس ساطعة.

- أدعو الله أن تجد عملا في القريب، كما أدعو الرب أن يُطيل صداقتنا.

- شكرا، وأنا أعلم أنك تحب لأخيك ما تحبه لنفسك.

وصل الصديقان إلى مدينتهما بعد تمتع في السفر، وبعد تمتع في حواراتهما الثنائية، والتي كانت حوارات فكرية نابعة من ثقافة كل منهما الموسوعية التي لا تؤمن بالتخصص، فهما يذمان كل تخصص، لأنه يُضيق شساعة الفكر، ورحابة المعرفة.

الأربعاء 10 رجب 1436هـ/ 29 أبريل 2015م

كن جميلا ترى الوجود جميلا

يبدأ حوار سعيدة مع زميلتها ابتسام بأن قالت لها: ما لي اليوم أراك حزينة كئيبة؟ يبدو للناظر إليك من الوهلة الأولى أنك مهتزة الفؤاد، مخربة الوجدان. رددت ابتسام قائلة:"إن سبب حزني هو حيرتي من نفسي ومن الوجود. إني أفكر في الغد قلقة حزينة". ترد سعيدة قائلة:"إن هذا التفكير من قلة الإيمان، كما أنه من وساوس الشيطان. اطردي عنك -يا صديقتي- هذي الأفكار، وامرحي مع المارحين، واسعدي مع السعداء، وإياك والنظر إلى أهل التعاسة، لأنهم سوف يزيدون تعاستك، وإياك والتفكير في أهل الهم والحزن، لأنهم سيُضيقون السعادة في شرايينك".

ذهبت ابتسام إلى قضاء حوائجها ممعنة النظر فيما قالته سعيدة، فوجدت الكلام صائبا، والقول سديدا، والحوار مع زميلتها لينا عذبا رائعا، وفكرت في أن تزور صاحبتها كي تخفف الأحزان، لأنها ارتاحت إلى قولها. ها هي ذاهبة -تقصد منزل أهل الحكمة- كي تزور صديقتها، ولما طرقت الباب وفُتِحَ، سلمت سعيدة على الطارقة فرحة أيما فرح، باسمة أيما بسمة، تكاد تطير من الجذل لهذه الزيارة غير المُتوقعَة.

قالت سعيدة لابتسام:"أقلقني تدهور صحتك النفسية هذه الأيام، هلا أخبرتني تفصيلا أوفر من البارحة على الذي يجري معك علي أقدم لَكِ العون الذي تحتاجينه؟ أنا صديقتك يا ابتسام". ردت ابتسام:"لقد أصبحت أفكر في الوجود كثيرا كثيرا، وذلك لا يزيد إلا من معاناتي، كما أني قليلة التدبر في هذا الوجود من زاوية الإسلام. وقد رأيت أن معك حقا فيما قلته البارحة لي، بأن نعتني بقليلة الإيمان، وقولك ذاك عين الحقيقة، ونواة الصواب".

هذا هو طعم الصداقة القائمة على القيم لا على المصالح.

ابتسام تتكلم والحزن باد على محياها، لكن سعيدة ممعنة في التفكير كي تخرج زميلتها من قعْرِ الزجاجة. لقد رأت الفرصة مواتية كي تذهب مع زميلتها في جولة تأمل إلى الحديقة العمومية للحي، رحبت صديقتها بفرح. وبعدما وطئت أرجل الصديقتين الحديقة الرحبة الواسعة الجميلة قالت سعيدة:"انظري يا صاحبتي إلى هذي الخلائق، لأنها لا تزيد المؤمن إلا إيمانا، ولا تزيد المتأمل إلا تأملا، ولا تزيد الفطِنَ إلا فطنة وذكاء. ألم تسمعي قول القائل حين قال: العقل غريزة، والحكمة فِطْنة؟ وعلى هذا القول يكون لكل ابن أنثى عقل وُلِد معه، وحكمة جوهرها الذكاء. انظري وانظري دونما كلل، ودونما ملل، إلى الأشجار والورود والأعشاب، وإلى هذه الطيور المغردة الحسنة المظهر، الباهرة الجمال، وتدبري في قول شاعر التفاؤل إيليا أبي ماضي حين قال في قصيدته "فلسفة الحياة":

أدركت كنْهها طيور الروابي فمن العار أن تظل جهولا
تتغنى والصقر قد ملك الجو عليها والصائدون السبيلا
تتغني وقد رأت بعضها يُؤْ خَذ حيا والبعض يقضي قتيلا
تتغني وعمرها بعض عام أفتبكي وقد تعيش طويلا
فهْيَ فوق الغصون في الفجر تتلو صور الوجد والهوى ترتيلا

امرحي وامرحي بهذا القول واتخذيه عنوانا بارزا لك في الحياة. وانظري إلى الحياة بعين المتفائل لا بنظر المتشائم، وتأكدي أنك إذا ما نظرْتِ إلى الوجود بجمال فسوف يكون كل شيء فيك جميلا، ولذاك ردد القائل:

أيهذا الشاكي وما بِكَ داءٌ كن جميلا ترى الوجود جميلا

لقد بدأت ابتسام في الانشراح، والسبب هو حكمة سعيدة التي أكدت لابتسام أنها أهل للثقة والصداقة، وهذا هو الشيء الذي شجع سعيدة للمضي قُدُما نحو مساعدة ابتسام أكثر فأكثر، فقالت:"انظري إلى السماء، وانظري إلى ما فيها. وإذا ما ذهبت إلى اليم ابصري إلى ما حوله وما فيه لعلك ترين حقيقة

الكون. ألم يقل المولى جل وعلا في محكم تنزيله:سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. إن هذا الوجود وما فيه يدعو الإنسان إلى التدبر بغية الفوز بالجنة التي وعدها الله للصالحين الأخيار من عباده. تأملي في هذا النظم:

تأمل ترى في الوجود سرورا يزيد الفؤاد ضياء ونورا

فرحت ابتسام باهتمام سعيدة بها أيما اهتمام، وأكدت لها أنها بدأت تخرج من قوقعتها المظلمة المقفرة الدهماء إلى سعة السماوات والأرض، ورحابة الوجود الشاسع الذي لا يفكر فيه إلا ذو فكر نافذ، وعقل مشرق وضاء مضيء.

صدق الحق حين قال:"إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا". إنك نعم الصديقة يا سعيدة تقول ابتسام.، وتذكرت بيتا من الشعر الحسن يقول فيه صاحبه:

وكل شديدة نزلت بقوم سيأتي بعد شدتها رخاء

وأخيرا قد ارتاحت ابتسام واطمأنت، وزالت وساوسها بالبراهين الدامغة التي تتضمن في طياتها الفصل في النظر إلى الوجود، كما أنها سكنت هواجسُها التي أقلقت صديقتها في البداية وقررت المساعدة، ونيل الأجر والثواب، والفوز بالرضوان.

دارت الأعوام دورتها، وتتابعت السنون سنة بعد أخرى، وفعلت الأيام فعلتها، فما زادت الصداقة إلا استفحالا، وما زادت المحبة إلا تأصلا. وأصبحت الصديقتان كلما حلت بواحدة منهما نائبة من النوائب إلا وساعدت الأخرى زميلتها حتى كانتا نعم الصديقتان في الإخلاص والوفاء، نظرا للخلق الحسن الذي يربطهما ببعضهما.

الخميس 24 شوال 1435ه/2 غشت2014 م

لا إكراهَ في الدين

في مدينـة كبـيرة رائعـة وُلِـدَ. كانـتْ مدينـة سـاحلية سـاحرة تخطـف الألبـاب، قامـتْ عـلى رُبـوة، تطـل عـلى الدنيـا مـن الأعـلى. تـرى كل شيء منهـا جميـلا، تتمنـى وأنـتَ زائـرٌ لـوْ أنـك تقيـمُ فيهـا حياتـكَ كلهـا، لطيـبِ جوهـا، ولطـفِ أهلهـا، ورقـة نسـيمها.

خليـط مـنَ الأجنـاس في هـذه المدينـة، فيهـا المسـلم واليهـوديّ والمسـيحيّ وغيرُهـم مـن الديانـات المختلفـة، تتأكـد وأنـتَ فيهـا أنهـا مدينـة السـلام، ومدينـة التعايـش، ومدينـة التلاقـح الثقـافي. الـكل فيهـا يعيـش مُرْتاحـا لا يحـذر الآخريـن.

تشـهدُ المدينـة تنميـة متواصلـة، أهلهـا في عمـل، يعملـون في إخـلاص، يريـدُون الخـيرَ لمدينتهـم التـي أصبحـتْ عاصمـة السـلام، يقصدُهـا السـياح مـنْ بقـاع المعمـور، يسـمعون عنهـا، ويُبـصرون مـا هـي فيـه مـنْ تقـدم ورقـيّ عـنْ قـرْبٍ.

المسـؤولون في هـذه المدينـة جهزوهـا، وألبسـوها أجمـل الحُلـل حتـى تكـون قـدْوة لباقـي مُـدُن البـلاد، التـي لم تبلـغْ مـا بلغتْـهُ هـذه المدينـة المثـال، والتـي تمتـازُ بشـوارعها الكبـيرة، ومنازلِهـا المُتراصّـة المُنظمـة المُحْكمـة التجهيـز، ودكاكينِهـا المثاليـة، التـي تفصـلُ بينهـا مسـافة قانونيـة، تفصـلُ أيضـا بـين المقاهـي ومراكـز الشرطـة والملاعـب ومؤسسـات الدولـة...

تُخصّـصُ لسـيارات الأجـرة -في هتـه المدينـة- أمكنـة خاصـة. أمـا الأسـواقُ والمسـاجدُ والكُليـات فـلا تسـألْ، لأنهـا شاسـعة وكثـيرة، تسـتغل الفضـاءَ والأديـم، وهـو الأمـر الـذي يجعلُهـا كبـيرة جـدا.

تجـاور مدينتُنـا هـذه البحـرَ الـذي زادهـا جـمالا، وألبسَـها حُلـة العـروس. إنـه أزرق رائـع يبهـر، الميناءُ فيـهِ منعـزل، جمـعَ بـين جمال الطبيعـة وصُنْعِهـا، وبـين تدخـل الإنسـان.

كـبُرَ معتصـمٌ في هـذه المدينـة، أخـذ منهـا الكثـير مـن الخصـال، اكتسـبَ مـنْ منزلـه، ومـنَ النـاس الخصـال الحسـنة، التـي انْعكسَـتْ

صُورَتُها عليه، أصبحَ فيها الشاب المُسلم الطموح، كانَ فائقَ الذكاء، يتميز بالإرادة، تظهرُ صفاتُ الذكاء منْ طلعتِهِ.

كان لمعتصم أصحاب مسلمون ويهود ومسيح، كان يحبهم، ويبادلونه الحُب نفسَه، يتمنى أنْ يسلمَ أصدقاؤه من اليهود والمسيح، ومنْ بينهم يوسف اليهوديّ وجاكَ المسيحيّ.

كان الثلاثة يدرسون في كلية واحدة، كليةٍ متعددةِ التخصصات، يلتقونَ مرة مرة، يناقشونَ في مواضيعَ مختلفة، تمتد إلى الحديث عن الإسلام واليهودية والمسيحية، وعنْ دور حوار الحضارات في التعايش، واحترام الآخر، واحترام الغير.

يعيش معتصم مع أبيه وأمّه وأخته، يحبهم ويأنسُ بهم، ويأنسونَ به، يعتبرونه مصباحَ المنزل، إنْ وُجدَ أنِيرَ المنزل على سكّانه، وإنْ غابَ انتشرتِ الظلمة، كأنّ الضوء انقطع.

ذات يوم اتفق معتصم ويوسف وجاك على بناء مركز للشباب، لأن المدينة تفتقد لدار شباب، وتفتقد للأمسيات الثقافية إذا استثنينا التي تُقامُ بين أسوار الكُلية.

- معتصم، كيف نبتدئ هذا المشروع؟

- لا أعرفُ يا يوسف، هذه أول مرة أفكر في مشروع كهذا.

- أنت صاحبُ الأفكار يا معتصم، أنت المُفكّر فينا، تصعبُ علينا الأفكارُ، وتسهلُ عليك، إنّك رئيس فريقنا.

- والله لا أعرف ماذا نفعل؟

هنا يتدخل جاك الرزين، الذي يؤمنُ بالحوار، يُصغي في هدوء، فتُولَدُ منْ بناتِ فكره أفكار عظيمة.

- أيها الأصحاب، المهم عندنا طرحْنا الفكرة، والفكرة أول المشروع، دعونا نتركُ الموضوع إلى حين، نفكّرُ فيه بعضَ أيام، ثم نرى ما الذي تجودُ به الليالي منْ أفكار مشرقة في الموضوع، أنا على يقين أننا سنجدُ الحل، ليستْ أول مرة نقومُ بهذا الأمر، وأنتم تذكرونَ هذا.

- معكَ حق أيها الرزين.

- الرزين؟ رزين وذكي ومفكر الجماعة، والمصمم لأفكارها.
- شكرا لكما، أخجلتماني وأضْحكتماني.

تفرقَ الجمعُ عند المغيب في مفترق طرق الحيّ الذي يقطنون فيه، وبعدَ الافتراق قصدَ كل واحد البيْت. دخلَ معتصم المنزل، سلم على الجميع، توضأ وصلى المغربَ، وبدأ يقرأ قليلا منَ القرآن - بصوتٍ خافتٍ - في غرفته.

- يا معتصم، العَشاء جاهز، لا يكتملُ تناوله دونَكَ يا ولدي.
- أنزلُ حالا يا أمي الحنون، دقيقة أو أقل منْ ذلك.

وجدَ معتصم الفرصة كيْ يكلمَ الأسرة بالمشروع، ويستشيرَ أباهُ، هو موظف في البلدية، وخبير في مثل هذه الأمور، يعرفُ كيفَ تبتدئُ، وكيف تنتهي.

- نفكرُ في إنشاء دار شباب، ما رأيكم في هذا المشروع؟
- ما دورُ دار الشباب؟
- أمي، دارُ الشباب، تهتم بالشباب، فيها يجتمعون، يُنْشئون الأندية، ويقومونَ بالورشات، يسافرونَ في الرحلات، وفيها تُقامُ الأنشطة الثقافية والفكرية والرياضية والجمعوية...
- المشروعُ سيكونُ سابقة منْ نوعِهِ.
- بالتأكيد أختي، سوف يكونُ كذلك. ما رأيكَ أبي؟
- الفكرة كما قالتْ أختُكَ، سابقة في مدينتِنا. مَنْ سوفَ يساعدُكَ في هذا المشروع؟
- يوسف وجاك.
- إنهما خير الصحبة، وخير العوْن لكَ في هذا المشروع.
- أحتاجُ مشورتَكَ أبي.
- في ماذا أساعدُكَ يا ولدي؟
- الفكرةُ ما تزالُ في مخاضها، ما هي الإجراءات الأولى التي وجبَ أنْ نقومَ بها؟
- تكتبونَ طلبا توجهونه إلى وزير الشباب والرياضة، وطلبا إلى نائب وزير الشباب والرياضة بالمدينة، وطلبا إلى عمدةِ المدينة،

وترفقـونَ كل طلـبٍ بتوقيعـاتٍ عـددٍ مـنْ شـخصيات المدينـة، وتنتظـرون الـرد.

- شكرا أبي على هذه المعطيات المُفيدة.

أكملـتِ الأسرة العَشـاء، واتجـه الأب ومعتصـم صـوب المسـجد لأداء صـلاة العِشـاء، وتـركا الأم والبنـت تنظفـان المائـدة والمطبـخ.

بعـدَ يـوم واحـد التقـى الأصحـاب داخـل الكُليـة، جلسـوا في مقصـف الكليـة، أخـذوا مشروبـات مختلفـة، وأخـذوا في الموضـوع.

- هلْ فكرتمْ في الموضوع؟

- نعم جاك، فكرْتُ في الموضوع، ولمْ أجدْ جوابا.

- وأنتَ يا معتصم، هلْ فكرْتَ في الموضوع؟

- نعمْ، وفتحْتُهُ مع أبي، وأفادني فيه.

- ماذا قال لكَ؟

- أشـار لي أنْ نكتـبَ طلبـا نوجهُـهُ إلى وزيـر الشـباب والرياضـة، ونائبه بالمدينـة، وعُمـدة المدينـة، ونرْفِـقُ الطلـبَ بتوقيعـاتِ لشـخصيات المدينـة، وننتظـر الـرد.

- هذا جميل.

- جميل جدا يوسف، لِنَبتدئ الفكرةَ منَ اليوم، ما رأيكمْ؟

- شكرا لكما، لِنبتدئْ.

داخـل المقصـف جلسـت الجماعـة، وبمسـاعدة يوسـف الـذي كان طالبـا في الحقـوق خـرج الطلـبُ في شـكل يحـترمُ أصـول الكتابـة الإداريـة، كتبُـوا الطلـبَ، طلبـوا التوقيعـات، واتجهـوا إلى أقـربِ بريـد، أرسـلوا مـا كتبـوهُ مُرْفقـا بالتوقيعـات، وبعـدَ أيـام اسـتدعى نائـب وزيـر الشـباب والرياضـة معتصـما ويوسـف وجـاك، حاورهـمْ في المـشروع الـذي أجيـبَ بالقبـول، مـما جعـل الشـبابَ يفرحـونَ.

في إطـار شراكـة بـين وزارة الشـباب والرياضـة والبلديـة وجماعـة المدينـة شُـيّدَتْ دار الشـبابِ، وأصبحـتْ عـلى الأرض بعدمـا كانـتْ في فكـر، وبعدمـا كانـتْ عـلى ورق.

دُشـنتْ دار الشـباب بحضـور شـخصيات وازنـة، وفي المقدمـة نائب

وزارة الشباب والرياضة، أعْطِيَتْ الانطلاقة الفعلية لأنشطتها، التي لعبتْ دورا تثقيفيا بالمدينة، ونال شبابنا احتراما كبيرا منْ طرف الساكنة، والتي اعترفتْ بمجهود الشبان.

تخرج الشباب، وأصبحوا أمام هاجس البحث عنِ العمل الذي يريده كل شاب. معتصم تخرج في الهندسة، ويوسف في القانون، أما جاك فقد تخرج مُجازا في الفيزياء. تخرجوا جميعا بميزات مشرفة، وحصل معتصم على جائزة من الكلية، لأنه كان من الطلبة المتميزين.

- مبروك أيها الذكي.

- شكرا لكَ يا جاك.

- مبروك يا حضرة المهندس، رفعتَ شأنَنا بهذا التميز، وهذا النبوغ.

- أشكرُكَ صديقي يوسف، أنتما أيضا حصّلْتُما نقطا عالية، تستحقان التشجيع. ما رأيكما أنْ نذهب في سفر إلى إحدى المناطق الجبلية، ننسى ضجيج السيارات، نحنُ نحتاج ذلك.

- فكرة سديدة، ما رأيكَ يا يوسفُ؟

- رأيي منْ رأيكُما، سنة ونحنُ نذاكرُ، علينا أنْ نمنحَ أنفسَنا بعضَ الراحة، اشتقنا إلى النسيم العليل، وإلى تغريد العصافير، ورائحة المُروج، ورقرقة المياه، وحفيف الأشجار، وحياةِ السمَر ليلا، وحياةِ الاكتشاف نهارا.

- ما رأيكم منْ غد نذهبُ في سيارة والدي إنْ كانتْ في العمر بقية؟

- نحنُ مُوافقان حضرةَ المُنسّق.

في الغد صباحا أخذ معتصمٌ سيارة والده، وأخذ منَ المنزل ما يلزمُ للرحلة، وبينما هو يرتبُ الأغراض إذْ ظهرَ الصديقان يحملان أيضا ما يلزم، وبعدما بادلا أبَ معتصم وأمّهُ التحية، وضعا الحاجياتِ داخل السيارة، صعدوا جميعا، وودعوا الأبويْن مُتجهينَ صوب غايتهم.

وصـل الجميـع إلى المنطقـة المقصـودة، بنـوا خيمـة بالقـرْبِ مـنْ مجـرى مـائيّ، أنزلـوا الحاجيـات مـنَ السـيارة، نظمـوا الأشـياء في المـكان الـذي مـنَ المُمكـن أنْ توضـعَ فيـه، حـضّروا أكلاتٍ خفيفـة وإبريـقَ شـاي، أكلـوا ونامـوا للارْتيـاح قليـلا.

ارتـاح الشـباب، واسـتيقظوا عنـد المغـرب، توضـأ معتصـم وصـلى، وبقِـيَ يوسـف وجـاك في انتظـاره، فهـما يحترمـان دينـه، وهـو كذلـك يحـترم دينَهـما، ولا يُكرهُهـما، ولمْ يسـبقْ لـهُ أنْ حاورَهـما بشـأن الدين أبـدا، تهمّـه صداقتُهـما. أنهـى معتصـم الصـلاة، ووجـد أربعـة أعـين تنظـرُ إليـه، كأنهـا تخاطبُـه أنْ أسرعْ في تجهيـز نفسِـكَ حتـى نخـرجَ، فهـمَ معصـمٌ الرسـالة، بـدأ في تجهيـز نفسِـه في سرعـة للخـروج رُفقـة صديقيْهِ.

أوصى معتصـمٌ عـلى الخيمـة أحـد الشـيوخ، واتجهـوا -مشـيا عـلى الأقـدام- إلى الشـلال الـذي يبعُـدُ نصـف سـاعة، وفي الطريـق تحـاوروا في شـأن الإسـلام، وطيبـة أهلِـه.

- هل أنت مرتاحٌ بعدَ الصلاة؟

- نعـم جـاك، أنـا مرتـاحٌ كثـيرا، الصـلاة تريـحُ كثـيرا، هـي مطهـر للـروح، تريـحُ النفـس والأعصـاب، تـزرعُ الثقـة في الإنسـان، تجعـلُ المـرءَ يشـعرُ بسـعادة لا حـدّ لهـا.

- يـا جماعـة الخـير، أصارحُكـما أني بسـبب صداقتنـا الطويلـة، رأيـتُ مـنْ خـبَر معتصـم مـا جعَلنـي أفكـرُ في الإسـلام.

- مهـلا عليـكَ يوسـف، لا تقـلْ هـذا، أتعلـم أنـه سـوف يُشـكلُ لـكَ خطـرا مـع العائلـة؟

- أعلـمُ يـا جـاك، منـذ مـدة وأنـا أقـرأ عـن الإسـلام والمسـلمين، وزيـادة عـلى هـذا، أنـا أعيـش في بلـد مسـلم، لمْ تبْـصِرْ عينـايَ إلا الديـنَ الـذي يُطابـقُ الواقع،أمـا دينـي، ونصـوص التـوراة، فـكل الـذي تعلمتُـهُ يخالـفُ الواقـع تمامـا، مـما يؤكـد أن التـوراة كتـاب مُحـرّف، فكـرْ في هـذا الأمـر جـاك، إنهـا حقائـق بحثـتُ عنهـا كثـيرا في دينـي، وجدْتُهـا في الإسـلام.

- أعـدُكَ صديقـي أني سـوف أحـاولُ جـادا التوصـلَ لمـا توصلْـتَ إليـهِ، آنـذاك أعلنُهـا، هـلْ أنـا معـكَ في هـذا الأمـر أم لا. معتصـم، مـا لـكَ لا تتكلـم؟ كأنـكَ لسـتَ معنـا.

- أنـا معكـما، كلـما في الأمـر أني فـرح كثـيرا لمـا قالَـهُ يوسـف، وأريـد معرفـة المزيـد عـنْ موضوعِـهِ هـذا، أقصـدُ فرَحَنـا هـذا.

- أولُ أمـر لفـتَ انتباهـي، هـو مـا يفعلُـهُ الكيـان الصهيـونيّ، الكيـانُ الدخيـلُ عـلى أرض العـربِ في فلسـطين، والـذي يقتـلُ الأطفـال والنسـاء والشـيوخ، ويقتـلُ العـزلَ الذيـنَ يُدافعـونَ عـنْ أرضِهـم، يقتلُهـم للإبـادة، لكـنْ مـا أبيـدوا، يمـوتُ الواحـد، ثـم يـأتي العـشرات، لابـد أن في الأمـر سرا خفيّـا.

- نعـم، الاعتـداء والظلـم والجـور والصمـتُ العالمـيّ، والسـكوتُ العـربي، أشـياء تشـيرُ إلى صحـة رأي الفلسـطينيينَ في الدفـاع عـنْ أرضِهـم، والـسرّ الـذي تحدثـتَ عنـه يتمثـل في صـدق القضيـة، وإعانـة الرحمـن للمسـلمين في هـذه الأرض المُقدسـة، لكـنْ هـلْ نطقْـتَ الشـهادتيْن؟

- نعـمْ، لمـا أيقنْـتُ الإسـلام، ذهبْـتُ إلى المسـجد الكبـير للحـيّ، يتواجد فيـه إمـام فقيه، بحـرٌ في علوم الدين، وثمّـة نطقْتُ الشـهادتيْن، وبدأتُ الصـلاة خُفيـة عن أبـويّ، وأنـوي مُصارحـة الموضوع معهـما قريبا، كما أنـوي الصيـامَ في رمضان.

- أنا مسرور بإسلامِكَ يا أخي في الإسلام.

- هـذا كـرم منـكَ يـا معتصـم، رأيْـتُ فـرَحَ جميـع المسْـلمين بإسـلامي، شـكرا لـكَ، وشـكرا لهـم جميعا. قـلْ لي جاك، هـل سـبقَ أنْ رأيْتَ أحدا مـسرورا بدينِك؟

نزلـتْ هـذه العبـارة عـلى جـاك كالصاعقـة، قـدْ أفحمتْـهُ، وتركـتْ صداهـا في ذهنـه، كانتْ فيها رسـائلُ كثيرة منْ يوسـف، حاولَ التجنب، لكـنّ معتصما تدخـلَ في ذكاء.

- مهلا، اترُكْ جاك على راحتِهِ.

- نحـنُ أصدقـاء يُناقشـونَ موضوعـا يمـلأ الدنيـا، تـراودني كثـير مـنَ

الأسـئلة العالِقـة، إذا نظـرتُ إلى معتصـم وعائلته، أحببْتُ الإسـلام، وإذا نظـرتُ إلى مكْـر المُسـلمين، وكذبهـم ونفاقهـم قلتُ:أهـذا هو الإسـلام؟

- فكـرْ كـما فكـرْتُ أنـا، لمْ أفكـرْ في المسـلمين، لأنهـم باعـوا دينَهـم، بلْ درسْـتُ سـيرة محمـد صلى اللـه عليه وسـلم، ومُعاناتَهُ في نشر الإسـلام، وكنـتُ أدرسُ اليهوديّـة، وأقـارنُ بـين الديانتيْن، أنقبُ هنـا وهناك، أجدُ الفـوارقَ والخروقـات في الديـن اليهوديّ، ولا أجدُها في الإسـلام.

- سوف أقتدي بهذا التوجيه، أعِدُك.

أمـضى الشـبابُ ثلاثـة أيـام في السـفر، لعبـوا وضحكـوا، وعـادوا إلى الديـار، وكان أولُ شيء بعـد السـلام تحدث به معتصـم إلى العائلة، هو إسـلام يوسـف، فرحَتِ الأسرة بهـذا الخبَر، وزادَ الفرحُ لمـا أعلمَ معتصم الأسرة أنها مسـاهمة في إسـلام يوسف.

عـاد جـاك إلى المنـزل، سـلم عـلى الأهـل، أكل وشربَ وأخـذ قسـطا مـنَ الراحـة في غرفتِهِ، أفاقَ واغتسـل، ثـم حمل القرآن، لأنـه علمَ ذاتَ يـوم مـنْ صديقـه معتصـم أن هذا الكتاب لا يمسّـه إلا المُطهـرون، فتحَ القرآن بعشـوائية، ابتدأ القراءة، شـعرَ براحة غريبة، لمْ يسـبقْ أنْ شـعر بهـا، وبعْـد الفـراغ مـن القراءة اتجـه إلى مكتبـة في الحيّ، اشـترى كتابا حـول سـيرة الرسـول صلى اللـه عليه وسـلم، بدأ يقـرأ ويقـارن، وبدأتْ تظهرُ لـه الفروقُ.

اسـتمرّ تنقيـبُ جـاك أشـهرا، كان فيهـا يقـرأ القرآن وتفسـير الآيات، ويقـرأ سـيرة الرسـول، كان يبحـث في المواقـع، ويكـثرُ الأسـئلة عـلى معتصـم ويوسـف كلـما التقـى بهـما أو بأحدهـما، حتى أيقـنَ الغنيمة وقـرر مواجهـة الأهـل، آنـذاكَ نطق الشـهادتيْن، وبـدأ يدعـو الناس إلى الإسلام.

فـرحَ معتصـم ويوسـف بالمسـلم الجديـد، وبـدأ كل منهـما يُفكر في اسـم جديد لجـاك، والذي وجد الاسـم المُناسـب.

- ما رأيكم في اسم سعيد؟

- هذا اسم جميل.

- نعمْ، نسمّيك سعيدا كيْ تكون سعيدا في حياتِك الجديدة.

كان مـنَ الـلازم عـلى يوسـف وسـعيد أن يواجهـا أهلهـما، فاتحَـا الأهـل في الموضـوع، لكـنّ أسرة كل منهـما لمْ تقبـلْ بهذا الديـن، طلبتْ أمّ يوسـف مـن ابنهـا مغادرة المنـزل، فيما فضلتْ أسرة سـعيدٍ التعايش مـع الموضوع.

غـادر يوسـف المنـزل مُتجهـا عنـد رفيـق دربه معتصـم، قضى عنده بعـض أيـام ريثـما يدبـر أمـر شُـقّة صغـيرة، وبينـما هـو في حُـزن عـلى فـراق الأهـل نادتْـهُ مدرسـة خصوصيـة للتدريـس فيهـا، فـرحَ بهـذا العمـل، وبـدأ رُفقـة الصاحبـيْن في البحـثِ عـن شـقة صغـيرة وجدوهـا في حـيّ مُجـاور.

انتقلَ يوسـف إلى شُـقته، وبعدَ أشـهر قليلةٍ من العمل في المدرسـة طلـبَ يـدَ أخْـتِ مُعتصم للـزواج، والتـي لمْ ترفُضْ، لأنها تعرفُ يوسـفَ عـنْ طريـق أخيهـا. أقِيمَـتْ الوليمـة التـي حضرَهـا الأحْبـابُ، ورحلـت الشـابّة إلى بيْـتِ زوجها.

تخـرجَ معتصـمٌ مهندسـا في المعْـمار، تزوّجَ بعدمـا جمعَ من المال ما يكفيـهِ لهـذا الغـرض، وسـكنَ رفقـة أمّـه وأبيه، لأنّـه كان الابـن الوحيد لهـما، ولأنّ المنـزل كان كبيرا.

في هـذه الأثنـاء كان لا يـزالُ سـعيد مـنْ دون عمـل، بحـثَ وبحـثَ ولمْ يجـدْ، واستشـار معتصـما في الأمر.

- معتصم، إني أبحثُ منذ مدة عنْ عمل، ولمْ أجدْهُ، ماذا أفعل؟

- لعل الله يختبرُك. اعلمْ أنّ مع العُسْر يسرا.

- أعلم، لكنْ ماذا أفعلُ بعد الصبر؟ أشِرْ إليّ بعمل يُناسبُني.

- ما رأيك في التجارة؟

- التجـارة تحتـاج رأس المـال، وأنـا لا أملـكُ قـوتَ يومـي، كيـف أدبّـر أمـرَ المال؟

- دعْ أمـرَ رأس المـال لي، أنـا أدّخـر شـيئا منَ المـال أقرضُهُ إيّـاك على أنْ تـردّهُ لي عندما تُصبـحُ ثريا.

ضحِـكَ الصاحبـان، بـدآ يُفكـرا في تجـارة تناسـبُ سـعيدا، ووجدا أنّ الاتّجـار -في الملابـس- أمـر مناسـبٌ لـهُ، فهـو يجيـد الـكلام، خطيـب في

القـول، رزيـن وذكي، وامتهـان مهنـة التجـارة في الملابـس يحتـاج هـذه الصفات.

نجـحَ مـشروعُ الملابـس، وأعـاد سـعيد القـرض إلى صاحبـه، وبـدأ بحثـا مـنْ نـوع آخـر، بدأ رحلـة البحث عـنْ زوجـة، يُكوّنُ معهـا أسرة، ويعيـشُ معهـا الحيـاة السـعيدة.

- أتريدُ الزواج فعلا؟

- نعمْ يا يوسف.

- أتريدُ أنْ تُمطرَكَ امرأة الأطفال؟

- نعمْ يا معتصم.

- سـوف تشـيخُ قبـلَ الأوان، طلبـاتُ المـرأة والأبنـاء لا تنقـضي، سـوف تسـمعُ عـلى الـدوام عبـارات مـن قبيـل: ينقصُنـا هـذا، انقـضى هـذا، عليـكَ إحضـار هـذا...

- نسيتَ هذا، ولمْ تحضِرْ هذا، وإيّاكَ أنْ تنسى هذا...

- أيها الأصحابُ، أطلبْتُ المشورة أم طلبْتُ سدّ الآفاق؟

- نحنُ نضحكُ معك فقط.

- أعرفُ فتاة مُقربة منَ العائلة، خلوقة جدا، تناسبُك يا سعيد.

- هَلُمّ بنا حتى نراها.

- أبْشرْ سوف تراها غدا، سوف تُعجبُكَ.

في الغـد بعـد العـصر اتجـه سـعيد ومُعتصـمٌ وزوجتُـهُ ويوسـفُ وزوجتُـه في اتجـاه بيْـتِ الفتـاة، دخلـوا إلى المنـزل، جلـسَ الرجـالُ في المضافـة، بينما جلسَـتِ النسـوةُ في غرفةٍ مُجاورة، رأى الشـابّ الشـابّة، أعجـبَ بهـا، وأعجبَـتْ بـهِ، وطلـبَ عقـدَ النـكاح في أقرب فرصـة، وهو الـشيء الـذي وافقـتْ عليـهِ أسرة الفتـاة.

تـزوّج سـعيدٌ، وزادتْ سـعادتُهُ، واسـتمرتْ صداقتُـهُ مـع صاحبيْـهِ الخيّريْـن، معتصـم ويوسـف، يتـزاورونَ بينَهـمْ، يتشـاورونَ في كل القضايـا، يُعْلِنـونَ قِيَـما عُليـا ضاعـتْ مـنْ مُجتمعاتِنـا الإسـلاميّة.

الثلاثاء 14 ذو الحجة 1438ه / 5 شتنبر 2017م

همتي همة الملوك

خـرج عمـر مـن القريـة الصغـيرة التـي عُـين فيهـا أسـتاذا للغـة العربيـة قبـل سـنتين متجهـا صـوب مدينـة الربـاط كي يلتحـق برفاقـه في النضـال، مُنْضَـماً إلى التنسـيقية الوطنيـة للأسـاتذة المجازيـن المقصيـين مـن الترقيـة، وبغيتـه في ذلـك المطالبـة بالكرامـة ورفـع الظلـم والاسـتبداد الـذي يطـال فئـة مـن الأسـاتذة المحرومـين مـن الترقيـة بالشـهادة.

لقـد خـرج عمـر ولم يعـد لـه أثـر في القريـة الخـضراء بأشـجار الزيتـون التـي تغطـي المنطقـة بأكملهـا، الـكل ممـن يعرفـه أصبـح يسـأل عنـه، وعـن المصـير الـذي قـد يتعـرض لـه مـن طـرف الـوزارة الوصيـة، وزارة التربيـة الوطنيـة والتكويـن المهنـي التـي أضحـت في نظـر عمـر مجـرد مؤسسـة مثـل باقـي مؤسسـات الوطـن. صاحبنـا كان يـرى مجـال هتـه الـوزارة أحسـن مجـال في الوجـود، لكـن لمـا ولـج المجـال وتعـرف ثغراتـه المتعـددة المتنوعـة، ولمـس سر المسـألة المتعلقـة بتراجـع وتـدني المسـتوى التعليمـي ببـلاده المغـرب، أدرك أن الأمـر مقصـود عنـوة، وتغـيرت نظرتـه إلى وطنـه الـذي يحبـه رغـم كل شيء.

مـا زاد صاحبنـا تشـبتا بالتنسـيقية وأعضائهـا هـو تمـادي المخـزن في تعنيـف الأسـاتذة بمدينـة الربـاط التـي شـهدت مشـاهد لا تليـق والأسـتاذ، فـزاد بذلـك شـغف صديقنـا عمـر في الإضراب المفتـوح الـذي اقـترب لحـد السـاعة -وحسـب لسـان عمـر- مـن الشـهرين، متخطيـا بذلـك الإضراب المفتـوح للتنسـيقية الوطنيـة السـابقة التـي جـرت معهـا القصـة نفسـه، وانفرجـت الوضعيـة بعـد ذلـك بمرسـوم اسـتثنائي يُخَـول لأعضـاء التنسـيقية الاسـتفادة مـن الترقـي بالشـهادة، ومـن أثـر رجعـي مـادي ومـالي، وتغيـير الإطـار لمـن أراد ذلـك، وهـذا مـا شـجع عمـر والتنسـيقية كلهـا عـلى السـير قدمـا نحـو تحقيـق هذا المطلـب الـذي يعتـبر مطلبـا عـادلا في نظـر جميـع المهتمـين بالمجـال

التربـوي.

في يـوم مـن الأيـام وصاحبنـا يـردد الشـعارات في مسـيرة مـن المسـيرات في شـارع محمـد الخامـس إذ طوقـت الشرطـة المـكان وفرقـت بعـصي رجـال الأمـن المظاهـرة السـلمية، وفـوق هـذا كلـه ضربـت مـن ضربـت مـن الأسـاتذة، وكان مـن هـؤلاء الأسـاتذة عمـر الـذي ردد في قلبـه والعـصى تضربـه بيـت المتنبـي قائـلا في قـرارة أعـم ا قــه :

وفـؤادي مـن الـمـلـوك وإن كا ن لـسـانـي يُـرَى مـن الـشـعـراء

قلـب عمـر قلـب الملـوك، وإن كانـت الأنـام تـراه مـن الشـعراء، لكـن مـن يضربـه لا يعلـم أنـه ملـك وشـاعر لـذاك يفخـر بطلنـا مـن جهـل رجـال الأمـن قائـلا في نفسـه:لقد قلـت لا للفسـاد، هـل بإمكانكـم يـا رجـال الأمـن قولهـا؟.

طالمـا ناقـش في مـا مـضى مـن الدهـر مثـل هـذه المواضيـع المتعلقـة بالمخـزن والفسـاد الاجتماعـي بشـتى أنواعـه مجيبـا بثقـة الواثـق مـن نفسـه:

فكم بطل فل الزمان شباته وكم سيد دارت عليه الدوائر

هـو يؤمـن إيمانـا قويـا أن مـن يتخيلـون أنفسـهم أبطـالا لابـد أن يقطعهـم الزمـان، وأن الأسـياد لابـد أن تـدور المصائـب عليهـم في يـوم مـن الدهـر، وفي هـذا انتصـار للكرامـة والعدالـة عـلى حسـاب الفسـاد والظلـم.

توالـت الأيـام وعمـر لم يلتحـق بالمؤسسـة مـما زاد بمريديـه مـن التلاميـذ وممـن يعرفـه السـؤل عـن غيابـه المسـتمر وغـير المسـبوق، كيـف لا يسـألون عنـه وهـم يحبونـه؟ كيـف للتلاميـذ الدراسـة دون حصـص عمـر التـي كانـت مرحـا وجـذلا تقـوي في أرواحهـم الهمـة والطمـوح والمجـد والعـلا؟ كانـوا برفقتـه يبحثـون عـن السـؤدد، يخاطبـون العليـاء. هـو الـذي ربى في تلامذتـه هتـه الخصـال الجميلـة، وكأنـه يسـير عـلى درب الشـاعر حـين قـال:

هِـمـتي هـمة المـلوك ونـفـسـي نـفـس حـر تـرى المذلـة

كـفـرا

عـرف هـذا الأسـتاذ كيـف يُدْخِـلُ التلاميـذ إلى عالمـه فأحبـوه حـب الابـن لأمـه، وحـب المريـد لشـيخه، وحـب الحـوت لمائـه، وحـب العصفـور -مرنمـا منشـدا فـوق الأغصـان والأفنـان- لسـمائه.

كيـف لي أن أنسـاك يـا عمـر وأنـت الـذي كنـت لي الأخ والصديـق، والعـون والرفيـق، هـل تذكـر يـوم كنـت أحـاورك في موضـوع معـين كيـف كان كل منـا يحـاول الانتصـار لرأيـه حتـى نصـل إلى جـدال مُطَـول لا خـروج لنـا منـه إلا بنـزال وجـدال، وهـا نحـن الآن ربمـا تعقلنـا قليـلا فأصبـح كل منـا ينتـصر للحـوار لا لرأيـه، وكأننـا نطبـق قـول فولتـير المشـهور:"قد أختلـف معـك في الـرأي، لكـن أُضَحـي بحيـاتي مـن أجـل أن تعـبر عـن رأيـك بـكل حريـة".

الآن اسـتقر صديقـي في الربـاط مـع أعضـاء التنسـيقية بالعاصمـة، ولا عـودة لـه منهـا إلى حجـرة الـدرس إلا بالترقـي إلى السـلم العـاشر، ونسـيان السـلم التاسـع الـذي يطلـق عليـه بعـض أصحـاب قطـاع التربيـة الزنزانـة تسـعة، نظـرا لعـدم مسـايرته لحاجيـات الأسـتاذ الاجتماعيـة، مـما يجعـل المـدرس عرضـة لـكل عـوز وحاجـة وفقـر مضـن.

11 ربيع الأول 1435هـ/ 14 يناير 2014م

الفهرس

تقديم 05
أريد من زمني ذا أن يبلغني 09
الإنسـان بآدابه 13
العقل غريزة والحكمة فطنة 19
القناعة كنز لا يفنى 23
المـال والبنـون 27
إن الشعر وجدان 31
إن المعلـم للعليـاء يحملنـا 37
إنها أحلام بها عبر 45
في العلـم لا تقنـع بمـا دون النجـوم 53
كل أثـر مُبْـدع فهـو جديـد 57
كل صعـب عـلى الشـباب يهـون 61
كـن بلسـما إن صـار دهـرك أرقـما 67
كن جميلا ترى الوجود جميلا 75
لا إكراهَ في الدين 79
همتي همة الملوك 89